★★★★★
أعمال الرعب
الأصلية

الطبعة
الثانية

فهد حسن

الخروج إلى الزاوية

رواية

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى نفسكَ التي تتشارك معك نفس الجسد، ولن تستطيع ترويضها مهما فعلت.

إلى السيدة الجميلة .. أمي.

شكر لا ينقطع أبداً إلى أستاذي الفاضل الإعلامي الكبير: أ/ أحمد يونس.

1

الصمت قاتل.

الظلام مخيف.

الهواء بارد من حولي.

وأنا هنا.. أجلس عند الزاوية، منكمشاً، مشتتًا، أستشعر ألفَة غرفتي، وأستوحشها، إحساس لا أفهمه، الشيء ونقيضه، ارتجفَ جسدي، أقدام تقترب منِّي، تسير في تؤدة، صدى وقعها هزَّ كياني، زادت نبضات قلبي، خِفتُ وترقبتُ، فاقتربَتْ أكثر، شعرت بالصوت نابعًا من أعماقي.. فتوقفتْ، كاد نبضي أن يُجن.

لمحت بابًا أمامي، مفتوحًا، ياللأسف! لا سبيل إلى الهروب، فأنا مقيدّ بلا قيد، محُررٌ بلا حرية، لم أستطع الحراك، لطالما أحببت العزلة - لن أنكر - تهدجت أنفاسي، «تك.. تك.. تاك» ثلاث سكات، باب حديدي أُغلقَ، صريره رجّ دماغي، صداع قوي شق رأسي، ومن خلف قضبانٍ أعلى الباب، رأيتُ نفسي، واقفًا في الخارج، وجهي شاحب وأنظر نحوي، نظرةً خاويةً بلا أي شعور أو معنى.

2

- اصحى يا (ماجد).. إنت رجعت للخطرفة تاني؟

بالكاد فتحت عينيّ، نظرت له نظرة بلهاء، وقلتُ:

- إحنا فين، سيبني يا معاذ أنام شوية.

- يا حبيبي يلا لازم نمشي، إحنا بقالنا 3 أيام مابنروحّش بيوتنا

هذه الجملة جعلتني أسترد وعيي، العمل ثم العمل ثم العمل، ما الجدوى منه؟، راتب لا يكفي المواصلات حتى، أنا أكره كلّ شيء يجبرني على ترك غرفتي، أكره العمل والحاجة إلى المال والناس، ومعاذ نفسه، لكنه يحبني.. فركتُ عينيّ، كانت الرؤية مشوشّة بعض الشيء، جسدي ثقيل، ولا زال النعاس يتملكني، على كل حال نهضتُ، دخلتُ إلى الحمّام لأغسلَ وجهي لأفيق، الحلم، أو الكابوس الذي راودنُي أثناء قيلولة الإرهاق يتهادى أمام محُيلتي، أشعر أنني ما زلت هناك - الغرفة الظلماء - ونظراتي لنفسي لا تفارق ذهني. فتحت صنبور الماء، وأخذت بعضاً منه، مرة تلو المرة، مسحت به على وجهي، انتعشتُ، دبّ النشاط في عروقي، التقطتُ منديلاً وجففت الماء عن وجهي، وعندما نظرت إلى المرآة صرختُ، لقد رأيت ذلك الذي يُشبهني خلفي، التفتُ كالمجنون أبحث عنه، خفق قلبي، وتجمدت الدماء في عروقي، لا أحد خلفي، مجرد خيالات، هكذا أيقنت الأمر خلال ثانيتين، إنه هذيان قلة النوم، تنفست الصعداء، ألقيت بالمنديل في صندوق القمامة، وخرجت أصطنعُ الهدوء، قابلني معاذ يقول: - إنت كنت بتستحمى ولاّ إيه؟ يلا يا عم خلينا نمشي بقى تذكرت في هذه اللحظة أني ومعاذ هنا في مكان العمل منذ ثلاثة أيام، لا نغادر المكتب، ننام ونأكل ونقضي حاجتنا، أكره هذه الأيام من نهاية العام - والعام كله

- تأتي ومعها أشغال لا تنتهي أبداً، ولا بُدّ أن نعمل على حسابات السنة بالكامل، وكان قول معاذ يتردد داخل مسامعي: «شغلانة الحسابات دي شغلانة مهببة، ما كنت اشتغلت كاشير وريحت دماغي» لا بأس، أعتقد أن لا أحد يعجبه حاله، ويريد دومًا أن يكون في مكان شخص آخر، وهكذا نَترنح بين جدران الأيام وأنفسنا.

ترجلتُ مع معاذ مسافة خمسين مترًا تقريبًا، نحو الشارع الرئيسي، والذي تجمعني به صداقة الدراسة الجامعية في الماضي، والعمل حاليًا، نشترك في بعض الطباع، ونختلف في التفكير اختار معاذ لنفسه قبولَ كل شيء، لا يفكر أبداً أن يتمرد على وضعه، يمشي جانب الحائط، يعمل، ويعمل، ينفذ الأوامر، يحب المبيت في العمل، يُضحك للجميع، ولا يعترض بتاتًا؛ وهذا يتعارض مع أفكاري طوال الوقت، أنا أبغض تلك الحياة، لا أقبل الحيوانية - وإن كنت أقبل أحيانًا - أذهب إلى عالمي الخاص، أغوص داخله، في القراءة حياة أخرى، أبحر بين صفحات الكتب إلى ما لا أستطيع معايشته على أرض الواقع، ينعتني معاذ بالجنون والقدِم، لا يعرف معاذ حب القراءة وما تعنيه وتمثله لي، لذلك أعذره، وأشفقُ عليه.

عرض عليّ أن أركب معه دراجته البخارية، والتي يتركها عند «جراج» يقطن ناصية الشارع الرئيسي، فشكرته، وفضلّت انتظار «الأتوبيس»، وافق ورحل، وقفتُ عند المحطة، أشعلت سيجارة وأنا أترقب قدوم «الأتوبيس»، الشارع مزدحم ازدحامًا ليس له مثيل، انتظرت طويلاً، جميع «الأُتوبيسات» تمر عليّ، عدا ما أنتظر، أشعلتُ سيجارة، بدأ صبري ينفدَ، داعب النوم جفنيّ، انتبهت ورفضت تلك المداعبة، نفختُ الدخان بقوة، نظرت حولي باحثًا عن كشك أبتاع منه قهوة، حينئذ لمحتُ رجلاً عجوزًا يحدق بي، يقف عن يميني بمسافة أمتار قليلة. ربما أتخيل، إنها آثار الإرهاق وقلة النوم - قلت لنفسي - نظرت له مرة أخرى، كان لا يزال يحدق بي، لا يتحرك، نظراته

ثابتة، لا يرمشَ حتى، يستند على سيارة سوداء فخمة، يرتدي ملابس سوداء تدل أنه ذو مكانة رفيعة، أصلع بعض الشيء، وعيناهُ بهما عمقٌ غريبٌ، وبرغم أنه ربما تعدىّ الستين من عمره، إلا أنه بدا في صحة جيدة، لفت انتباهي بنظراتهُ، فأشحتُ عينيِّ عنه عدة مرات وعدت أنظر إليه، نصف ساعة أخرى، أو أقل، والوضع كما هو، لا الرجل رفع عينيه عني ولا ما أنتظره أتى، فقط، قَلّ الزحام، فوجدتُ العجوز يخطو تجاهي، توترتُ، أشعلت سيجارة، حاولت ألا أهتم، لم أستطع، خوفٌ ما ولدِ داخلي، هذا الرجل غير مريح بالمرة، أقصد تصرفٌه، تردد في عقلي أنه أحد المثليين الذين انتشروا هذه الأيام، فتأهبتُ له، فإن كان منهم، فهنيئًا له لكمة منِّي تكسر أنفه، وقف أمامي مباشرةً، قال مبتسمًا:

- مساء الخير.

- أؤمر.

ضممتُ قبضة يدي خلف ظهري، كي أسكنها في أنفه، عندما يعلن لي عن نيته النجسة، قال:

- آسف على تطفلُّي، بس ممكن أولع.

أرحت قبضتي، وخرج نفسي الذي كتمت استعدادًا لمحو ملامح عجوز شاذ، فلم يكن كما خمنت، فإن زال من داخلي الشك إزاء السوء، فلا زال القلق يسكن قلبي تجاه الرجل الغامض، أخرجت من جيبي «ولاعة» وأعطيتها له .

التقطها وأشعل سيجارة أخرجها من علبة سجائر أجنبية مستوردة، وأعاد لي الولاعة مبتسمًا، وقال:

- أشكرك.. بعتذر مرة تانية، بس ولاعَّتي مش عارف راحت فين.

- ولا يهمك يا افندم.

قلتها مصطنعًا، وفكري يسيطر عليه غموضُ الرجل، في عينيه نظرة عميقة تشير وتكشف لي عن شخصية قوية، الرجل ترك لي انطباعاً لم أعهده من قبل، فسألت نفسي وأنا أتابعه متجهاً إلى سيارته حيث ركبها وغادر: ماذا يخفي الرجل الغامض؟

اخترق أذنيّ صوتُ منادٍ ينادي:

- إمبابة.. إمبابة.

أخيرًا.. وصل الأتوبيس، صعدت وجلست، وفي عقلي أفكار كثُر، كأمواج متلاطمة، أسندت رأسي إلى النافذة الزجاجية، وتابعت الطريق، تشوشت أفكاري، وسمعت صوتي الداخلي يُذكرّني بحياتي، ما الهدف منها؟، وأي ذنبٍ اقترفت كي أُولد؟، أليس للعمل تاريخ صلاحية؟، أنا أعمل حتى الإغماء، أو الموت، أيهما أقرب.

المال لا يكفي، الوقت يقطعني، الحياة تنسرب، الموت آتٍ، والنهاية حتمية، وغير مضمونة، لا نعرف ماذا ينتظرنا، أنعذبُ أم ننعم في جنة؟، إن التواصل مع من سبقونا ليخبرونا أين هم، لهو أصعب من أن تلعب الشطرنج مع قطة!

عدتُ إلى الواقع عندما توقف الأتوبيس، جلبة أعادت لي الوعي، توقّفنا بسبب تكدسٌ السيارات، إذ ازدحمَ مطلع الكوبري الذي يفصلُني عن بيتي بمسافة قريبة، تحركّ الأتوبيس ببطء صاعداً، ثم وقف مرة أخرى في منتصف الكوبري - والذي هو فوق قضبان سكة حديدية، تعبر من خلاله السيارات من المهندسين إلى نفق يسهل عليهم الوصول إلى الكوبري الدائري، أسندت رأسي مرة أخرى إلى زجاج النافذة، لم أتعود أن تُشل حركة المرور هنا بهذا الشكل أبداً، بصرتُ القضبان، ولاحظت شيئًا يتهادى في الظلام يقترب في اتجاهي، بدا أمامي واضحًا، رجل يلبس جلبابًا مهترئًا باهت ، يرفعه إلى ركبتيه، لأكتشف أن له ساق واحدة طبيعية، وأخرى خشبية، تحرك الأتوبيس، أتيح لي

حينئذ رؤية الرجل بالكامل، إذ خرج بأكمله من الظلام، لا ملامح واضحة للرجل، لكنني تخيلته نفس العجوز الغامض، ثم تلاشت هذه الصورة سريعة، لأجده مقطوع الرأس، هلعتُ وفزعتُ، حركّت رقبتي بالكامل إلى الخلف، وأنا أتابع ذلك الشيء في ذهول أثناء ابتعاد الأتوبيس، اختفى كل شيء، وتوقف السائق عند آخر الكوبري بطلب أحد الركاب، تركت الأتوبيس نازلاً أنا أيضاً، أسرعت الخطى إلى بيتي وضربات قلبي تدق كعدادِ قنبلة موقوتة، دخلت غرفتي، التقطتُ أنفاسي بصعوبة، ريقي يابس، لم أكن أستطيع السيطرة على جسدي المرتجف، طرُق الباب وفُتح، دخلت أمي تسألني:

- مالك يا ماجد؟ رجعت من بره دخلت أوضتك بسرعة كده ليه؟ أنا ماشفُتكش من 3 أيام، ووشك مخطوف كده ليه؟ قلقتني.

اقتربت منها وقبلّت رأسها وقلتُ:

- وحشتيني يا ست الناس، مفيش حاجة أنا كويس، هتأكلّيني إيه بقى؟

- ملوخية بالأرانب ومحشي ورق عنب.

قالتها بعدم أريحية، كانت تنظر لي ولسان حالها يقول إنني أكذب عليها، لا أحد يعرفني أكثر منها، فحاولت أن أكون كما اعتادت رؤيتي، وقلتُ:

- والله أنا كويس ماتقلقيش، هدخل آخد دش وناكل مع بعض.

عادت أمي إلى المطبخ، أغلقتُ باب غرفتي، تنفسَّتُ محاولاً إبعاد القلق عن نفسي، لا بأس.. سيمرُ الأمر، مجرد عارض لا أكثر، لقد تعمقت مؤخرًا في البحث عن سر وجود العوالم الأخرى، وهذا ناتج طبيعي، قد اختزنَ عقلي الكثير من صور وتخيلات عماّ بحثت فيه؛ لذا بدا الأمر بهذه الحال.. بدأت أهدأ قليلاً، فتحت خزانة ملابسي وأخرجت منها ملابس نظيفة، فطرُق باب غرفتي، قلتُ: «ادخلي يا أمي».

فُتح الباب في بطءٍ غريب، وحين انفتح نصفه، لم يكن هناك أحد في الخارج.. تركتُ الملابس على السرير، اقتربت من الباب وخرجت، فلم أجد أمي في المطبخ، ناديت عليها فلم تُجب.. بحثت عنها في الشقة، لا أثر لها، وفجأة سمعت صوت المفتاح يتحرك في باب الشقة، ووجدت أمي تدخل، وعندما رأتني قالت في لهفة:

- حمد الله على السلامة يا حبيبي.

ضمتني إليها، فبادلتها في حيرة، سألتها:

- كنتي فين؟

- عند أم رباب تحت، ما أعرفش إنك جاي النهارده.

كانت إجابتها كصاعقةٍ ضربت عقلي، سألتها:

- إزاي وأنا كنت لسه بتكلم معاكي من شوية؟

قالت:

- إنت تعبان، باين على شكلك أهو، ادخل خد دش على ما أعمل لك حاجة تاكلها.

دخلت إلى المطبخ واسترسلت أمي حديثها:

- هعملك ملوخية، وكان عندي فرخة مسلوقة هحمرها لك..

هنا تذكرت وفهمت، أنا بالفعل لم أُخبرها بعودتي، إذًا لم تكن هي في المرة الأولى.. هذا هو الجنون بعينه، سمعتُ أصواتَ نبشٍ تنبعث من غرفتي، اقتربت ودخلت، فرأيتُ ملابسي ملقاة على الأرض، حملتها في استغراب، ثم ذهلتُ واتسعت عيناى، فركن غرفتي تحول إلى بوابة قديمة ضخمة، كأنها تعود لعصورٍ ماضية سحيقة، على البوابة قرأت حروفَ اسمي متفرقة، حركة من ورائي قطعَتْ أوصال فكري، التفتُ

بسرعة، فإذا ببابِ الغرفة يُغلق، ودبيب حذاء أنثوي يداهم الأرض وأُذُنيّ، سرتْ قشعريرة في قلبي قبل جسدي، انتصب شعر رأسي، استدرتُ حول نفسي باحثًا من أين يأتي هذا الصوت، كان في كل مكان، أسمعهُ في نفسي قبل الغرفة، اقتربت من الباب، حاولتُ فتحهَ فلم أفلحُ، وداهمَني صوتُ امرأة تقول:

«أنت على أعتاب العالم الأول، العالم الذي لطالما حلمتَ أن تحيا فيه، أتمنى لك وقتًا ممتعًا».

أطلقت ضحكة مروِّعة ساخرة ومرعبة، فتحتُ الباب أخيرًا، خرجت مهرولاً، فسمعت صوت المفتاح في باب الشقة، ثم فُتحَ ودخلت أمي، احتضنتني بلهفة، نظرت لها بخوف وحيرة، ثم أُعيدَ الحوار بيننا كما فى المرة السابقة، وعندما دخلت المطبخ سألتُها في توتر:

- هي مش دي تالت مرة أشوفك خلال نص ساعة؟

أجابتني بتعجب:

- إمتى ده؟ أنا كنت عند أم رباب من بعد صلاة العشاء.

لم أردّ عليها، لا أملك كلمات تناسب الموقف، أخذتُ ملابسي ودخلت إلى الحمّام، ملأت حوض الاستحمام بماء فاتر، وألقيتُ بنفسي داخله، ربما يستطيع الماء محو كلّ ما تحمله نفسي من جنون وخوف، أغمضت عينيّ وتركت جسدي يسقط، غمرني الماء بالكامل، وجهُ الرجل العجوز الغامض يداعب خيالي، ابتسامته ارتسمت على فمي، شعرت أنني أقلدها، صرخة مدوية من أمي هزت الجدران، أفزعتني لدرجة أني لبستُ ملابسي والماء يتساقط من جسدي، فتحت باب الحمّام، وللحظة تحول الباب إلى البوابةِ التي كنت رأيتها في ركن الغرفة، ثم - كالعادة - اختفى المشهد سريعًا، الواقع ينتصر ويُجبر الخيال على التراجع، كانت أمي تقف وتضع يدها فوق صدرها،

محاولة التقاط أنفاسها، وباليدِ الأخرى تستند على الحوض في انحناء، دون كلمة.. فتحت الصنبور وأخذت من الماء ومسحتُ على وجهها، أخذتها إلى الخارج، أجلستها، جلبت لها ماءً باردًا فشربت وهدأت ثم قالت بخوف:

- إيه اللي ضربني ده؟ ومين اللي عدت في الصالة دي؟

قلت في استغراب:

- ضربك؟ ضربك إزاي؟ إيه حصل؟

- أنا كنت واقفة بعمل الملوخية، عيني جت على الصالة، لاقيت واحدة عدت من البلكونة دخلت أوضتك، بس زي الخيال كده، ماشفُتش ملامحها، وفجأة حد بكل قوته ضربني كف على وشي، صرخت وقلبي كان هيُقف من الخوف..

هل الكتب التي أقرأها هي السبب؟ ربما خرجت جنية ما من بين أسطرها لتراودني عن نفسي، أراني أقف عند حافة جبل الحياة، والسقوط أو الاكتشاف أمرٌ متروك للتجربة والوقت، نظرت إلى أمي بشفقة وعاتبت نفسي؛ لمَ لم أفكر في أمي؟، أين كان عقلي عندما سجنت نفسي داخل نفسي؟. إذا استمررت في قراءة هذه الكتب، سأكون السبب في موتها.

كانت حالة أمي قد تحسنّت، واستعادت نفسها، وعادت إلى المطبخ مرة أخرى - عادات الأمهات العجيبة في تدارك الأمور - أما أنا فدخلت إلى غرفتي، رَفعتُ سريري، وأخرجت من مخزن خشبي صغير - كنت قد صنعتهُ داخل السرير في وقت سابق - جميعَ الكتُب التي كنت أقرأها دومًا، التهمتُ الصفحات بعينيّ، صفحة تلو الأخرى، ولا شيء يشرح ما طرأ عليّ، نظريات وآراء، رموز وطلاسم، لا جدوى من البحث، أعدت الكتب الى مكانها.

أحسست بجسدي يتوسل إليّ ويطلب الراحة، فلبيتُ النداء رغمًا عني، جلست عند ركن غرفتي، أسندت ظهري إليها، دارت الغرفة بي، كالذي يركب البحر لأول مرة، لا أستطيع المقاومة، غلبني التعب، وانتصر النوم على جفنيّ في معركة لم تدم طويلاً.

3

أغلقت باب الثلاجة بعدما شربتُ، لقد قُطعَ التيار الكهربائي، فاستيقظت من نومي عطشِاً، ناديت على أمي فلم تُجب، كنت لا أرى كفي حتى، تحسسّتُ الأشياء من حولي، لمحتُ ضوءَ شمعة ظهر في غرفتي، ثم بدأ يقترب منِّي فبدا شعلة كبيرة، دون أن أرى حاملها، كأن الشعلة تحمل نفسها، أو تمشي في الهواء، حينها أضاءت النار غرفتي بالكامل.

أنا أجلس في الزاوية، حزينًا مكتئبًا، اختفى كل شيء، تقهقر الخيال إلى الخلف، وانتصر الواقع، عادت الكهرباء، سمعت أمي تقول:

- أعملك شاي ولا هتنام؟

ضربتُ رأسي بكف يدي في ذهول مبتسمًا في سخرية:

- هو إحنا أكلنا؟ هو أنا اتجننت ولاَّ إنتي عايزة تجنينني؟

اقتربت مني أكثر ومسحت على وجهي براحة كفها وقالت بنبرة أمومة:

- يا حبيبي حصل لك إيه بس؟

- أنا هدخل أنام، أنا حقيقي تعبان جداً.

عدت إلى غرفتي قبل أن تضيف كلمة أخرى، جلست عند الزاوية، أحاول الربط بين كل هذه الأحداث.. «راغب عوني» العجوز الغامض، رجل بلا رأس، وأنا أصبحت اثنين، أصوات ترشدني، أو ربما تضلّلني.

نهضت وفتحت السرير مرة أخرى، أخرجت الكتب، الرموز هي المخرج، لو أردت أن أعرف ما يحدث، إن تتبعتُ الرموز سأُنهي كل شيء، يجب أن أحفظها جيداً، بل أحفظ كل حرف داخل هذه الكتب اللعينة، لكن هناك سؤال يراودني: هل الرموز والطلاسم سبب ما يحدث لي، أم أنا السبب؟

«لحظة واحدة، لحظة واحدة».

وأكملتُ حديثي مع نفسي:

«راغب عوني»؟ منَ قال هذا الاسم، إن الرجل الغامض لم يخبرني باسمه، فمن أين أتيت أنا بهذا الاسم؟

لا عليك يا ماجد، مجرد أوهام في أوهام.. هززت رأسي كي أفيق، وشرعت في قراءة الكتب، قرأت وقرأت وقرأت، حاولت أن أنطق

الكلمات بنُطقها الصحيح: «شالوميم رابونيم يارام، روفاسيم حراميم شالومين».

لا أعرف ما هذه اللغة، كأنها العبرية، مجرد تخمين لا أكثر، ربما تتحدث الجن العبرية أو لغة تشبهها، في النهاية لا خيار أمامي إلا المحاولة، لا أعرف نتيجة ما أنوي فعله، لا دربَ غير هذا لأسلكه، تحركت الأرض تحت قدمي، ورأيت بابًا خشبياً قديمًا ظهر في الزاوية، كتُبَ عليه حروف اسمي متفرقة، فُتح، فتباعد كل حرفين من حروف اسمي الأربعة.

4

ظهر أمامي نفق، الإضاءة فيه ضعيفة جداً، أتى النور يتهادى تجاهي، اقترب منِّي، وخرجت من النفق طفلة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، لها ملامح غير عربية، بملابس قديمة تعود لزمن بعيد، ربما قبل ألف سنة، كأنها كاهنة أو تتبع شيئًا مماثلاً، أشارت لي أن أتبعها، تلفتُّ حولي أبحث، لربما كان هو المقصود - شبيهي - وليس أنا، فأشارت لي مرة أخرى إشارة أكثر جدية، «أنت، هو أنت» إنه أنا، لا غيري هنا، اقتربتُ منها على مضض، أقدمّ قدمًا وأؤخر أخرى، مدتّ يدها إلى يمينها وأخرجتها حاملة

شعلة نار لها إضاءة قوية، لا أدري أين مدت يدها، ولا كيف أتت بهذه النار؟ سألتها في خوفٍ:

- هموت صح؟

لم تُجب، اكتفت بأن ترمقني بنظرة خالية، اتساع عينيها الخضراوين مرعب، يشبه ذاك الاتساع في عينيّ الرجل الغامض، ملامحها الجامدة توحي بالنهاية، رغمًا عنِّي تتبعتها، مشت أمامي في خطوات بطيئة، كانت أرضية الممر المليئة بالحصى تجبرنا على السير ببطءٍ،

سألتها:

- مش خايفة منِّي؟

لم تُجب، فسألتها مرة أخرى:

- أنا كده في عالم الأموات، أنا...

- اسكت.

قالتها في غضب عارم دون أن تنظر إليّ، ورغم أنها فتاة، لكنني لا أستطيع ردّ أمرها، أتبعها دون إرادة منّي، خائفًا مجبرًا. وصلنا إلى درج حجري ملتفٍ، درجاته صغيرة وبدون حاجز، أشبه بدرج يرجع إلى أبراج قلاع أوروبا في عهد العصور الوسطى.

صعدت الطفلة تاركة للأسئلة والخوف فرصة لقتلي، السلم يلتف أكثر كلما صعدنا، وكلما صعدنا ازداد الدوار، أحسست أن السقوط ميّت مسألة وقت لا أكثر، اختفت الأرض عن عينيّ حتى بدا لي أنه لم تكن هناك أرضٌ منذ البداية، وأن هذا السلم الثعباني كأنما بُنيَ في الهواء.

كدت أن أتقيأ، إلا أننا وصلنا إلى نهاية الدرج، وقفتُ التقطُ أنفاسي، انحنيتُ واضعًا يدي على صدري، سعلتُ، ثم رفعتُ وجهي وهنا صدُمِت، لقد اختفت الفتاة فجأة كما ظهرت فجأة.

وجدت بابًا أمامي، وضع فيه مفتاحًا معدنياً كبيرًا بشكل غريب، نظرت إلى الأسفل فكان الظلام مقبضاً بشعًا، لقد ابتلع كل شيء في الأسفل حتى الدرج الذي صعدته معها، فإن فكرت في العودة والنزول، فأي مصير غير الموت ألقى، حينها اتخذت قراري، لا سبيل لي سوى استخدام هذا المفتاح، صراحةً؛ أنا لا أفضل الموت في الظلمة.

ضغطت عليه، ففُتح الباب، ووقفت مصدومًا، إذ رأيت أمي تقف عند باب غرفتي تتكلم معي، وأنا أرد عليها بطريقة فاترة، تسألني عن حالي،

فأجيبُ أني بخير، كان هذا أنا، وأنا ليس هو.

خطوتُ للأمام لأخبرها، فوجدت نفسي داخل أرض كبيرة واسعة، كل شيء فيها بلون أسود، الرمال، الأشجار، المنازل الصغيرة المتفرقة، وعلى بُعد مئة متر أمامي تقريبًا، رأيت بوابة أخرى، لكنها كبيرة جداً، تشبه بوابات القلاع القديمة، شعرتُ أني داخل متاهة، ضائعًا، ولا

أعرف ما الذي يحدث ولا ما يتوجب عليَّ فعله، وإن كنت ميتًا، فلماذا ما زلت أشعر بكل هذا؟

ترجلت على الرمال السوداء بين البيوت الصغيرة والأشجار الميتة، البيوت كلها من

طابق واحد، كأن سكانها أشباح، أشعر بهم دون رؤيتهم، تحيط الأشجار بالبيوت، أشجار سوداء مائلة الجذع دلالة الموت، إحساس الموت يُعرف دون تجربة.

تحركّي كان بطيئًا نظرًا لخوفي، وشغفي في تفحص كل ما تراه عيناي، ولأن الرمال تحت نعلي ثقيلة، تتحرك في تؤدة عكس خطاي، وتعوق حركتي، جاهدتها كي أمضي قُدمًا.

بعد وقتٍ - لا أعرف كم - وصلت إلى البوابة العملاقة، جاءت من خلفي الطفلة، لم تترك لي فرصة لأي شيء، حتى أن أبدي اندهاشاً لحضورها المفاجئ، أمسكتْ بكفي ووضعت به

مفتاحًا أكبر من السابق، وقالت:

- أنت لم تمت بعد.. أنت مع الأحياء، ولكن في عالم غير الذي عاهدتهُ، أكمل، لربما استطعت أن تجتاز البوابات، أو تموت...

ركضتْ سريعًا كأنها تطير بمجرد أن أنهت حديثها، عاينت مشدوهاً حجم البوابة ومنظرها، ثم المفتاح في يدي، وفكرت أن كل شيء هنا - الخيالي في تخميني - غريب عجيب، ما معنى هذا؟

أولجتُ المفتاح بمكان هيأ له - ليس كالونًا كما

الأبواب - فُتحت البوابة، سمعت صوت سلاسل حديدية عملاقة تُجر، ثم.. لا شيء، فراغ آخر، استدرت، فوجدت البوابة مغلقة، ولا مكان

للمفتاح، أجبرتُ أن أمشي دون هدفٍ، لا سبيل للرجوع، ولا نقطة محددة أستطيع أن أصل إليها، هل هذا حقيقي أم جنون؟

اختفت البيوت والأشجار السوداء، لكن الرمال كانت لا زالت في صحبتي، تتحرك عكس اتجاهي، كأنها تعاندني، أو تحذرني، أو ترشدني، لا أعرف ما دلالة ما تريد؟

أوقفني عن السير بئر رأيتها عن يميني، دنوتُ

منه، فرأيتُ داخله مياهاً سوداء لها رائحة عطِنة، وصورة فيها تتحرك، كانت أمي تبكي على حالي، سمعتها تقول:

- إيه حصل لك بس يا ابني؟

ثم تلاشت الصورة، لتحتل مكانها صورة أخرى، كان انعكاساً لوجه الطفلة، وسمعتُ صوتها:

- اقترب.

مم اقترب؟ لا شيء هنا سوى الفراغ، الفراغ فقط، ووجدت البوابة أمامي، يبدو أنني لم

أتحرك أصلاً، أو تحركت البوابة على قدمين خشبيتين، وكان ما زال المفتاح بيدي، أنا أتخيل داخل التخيل، وربما أحلم داخل الحلم، يا ربي، أين أنا؟.. فتحت البوابة مرة أخرى، فملأ الفراغ صوت امرأة تقول:

- أهلاً بكَ داخل العالم الثاني.

«والغراب لم يطر بعد

ما زال قابعًا في موضعه فوق تمثال (بالاس) فوق باب غرفتي

وعيناه عينا شيطان يحلم

بينما ضوء المصباح يرسم ظلّه على الأرض

هذا الظلّ الذي لن تفارقه روحي.»

-إدجار آلان بو

5

أذان الظهر نبهني، فوجدت الزحام قد ساد الشارع وكنا نقف أمام مسجد كبير، نزلت من الأتوبيس، دخلت فتوضأت، صليت ركعتين، ثم انتظرت حتى صلينا الظهر، سلامًا نفسياً كبيرًا غمر قلبي، ركنت إلى عمود من أعمدة المسجد، أملت رأسي للخلف وأغمضت عينيّ، لم أشعر بشيء سوى الصفاء والهدوء، وسألت نفسي:

«هل ما يحدث مجرد أضغاث أحلام أم ورطة كبيرة ستقتلني».

كنت قد تأخرت عن العمل، قطعت الإجازة ولم أنتفع بها، حاولت أن ألهي نفسي وانشغل

عن التفكير، وابتعد عن نظرات الحسرة التي تملأ عينيّ أمي، وسؤالها المتكرر عن ما أصابني وسبب التغيير الذي طرأ عليَّ، وقفت على باب المسجد من الخارج، قررّت في لحظة أن لا مانع من التفكير بطريقة أخرى، وكنت قد رأيت مقهى عند الطرف الآخر من الشارع، جلست في ركنٍ بعيد، طلبت قهوة، ثم اتصلت بمديري وسألتُه إن كنت أستطيع تفعيل الإجازة وعدم الحضور، لأني كنت قد تسرعت وطلبت العودة إلى العمل بعد يومٍ واحدٍ فقط من الحصول

عليها، فقال:

- آه يا حبيبي طبعًا، تقدر تكمل إجازتك براحتك، ووقت ما تحب تنزل الشغل أنزل، أنا يهمني راحتك وبس.

لم أرد عليه، أغلقت المكالمة في ذهولٍ، منَ هذا؟ أهذا مديري الظالم المستبد الذي لا فارق بينه وبين هتلر غير شارب صغير يشبه «تفل» الشاي؟ أهذا مديري الجشع الذي لا فرق بينه وبين موسوليني غير أنه لم يشنق بعد؟ كيف تحول إلى حمامة سلام بيضاء؟

جاء القهوجي ووضع القهوة أمامي، شكرتهُ،

فرأيته يتفرسَ في ملامحي، أعطيتهُ سيجارة فأخذها، ظلّ يتفرس في ملامحي بصورة أكبر فسألتهُ:

- إنت مجنون ولا مالك؟

- لا يا ماجد أنا بس بشوف في ملامحك وصلت لفين في طريق الضياع اللي إنت اخترته.

كانت لكلماتهِ أثر الصدمة على عقلي، عقّدَ لساني كأنني لم أعرف الكلام والنطق من قبل، حتى قدميّ رفضتا الانصياع لإشارات عقلي

لهما بالتحرك، وجاء من يساري صوت أقدام، انتبهت كمن عاد من الغرق، فبصرت أمامي قهوجي، غير ذلك الذي كان هنا منذ لحظات، ترك القهوة فوق طاولة صغيرة أمامي وغادر دون كلمة، بل ودون أن ينظر لي، نظرت للطاولة، كان فوقها قهوة واحدة فقط، هي تلك التي تركها منذ لحظات، أما الأولى؛ فكانت داخل العالم الآخر، الذي لا أعرف له مسُمىً، هل هو عالم آخر، أم عالم موازٍ، أم...؟

- الحل جواك يا ماجد، لازم تنقذ نفسك.

التفت بسرعة للصوت الذي جاء من خلفي، كان هناك شبّاك مفتوح يطل على جهة من جهات الشارع الكبير، فرأيت القهوجي الأول يعبر أمامي، ثم انعطف يمينًا داخل ممرٍّ ضيق وفقدت أثره.. هل هي الطفلة تتنكر في زيّ قهوجي؟ ما هذا العته الذي أقول؟ لربما هو الرجل

العجوز الغامض، لكنه لا يشبهه، ما عليّ إلا الاتباع، اتباع ماذا؟.. الجنون والموت طبعًا.

تركت ثمن القهوة وأسرعتُ خلفَهُ، عبرت الشارع في لهفة وأنا أسمع أصوات قائدي السيارات يسبونني، انحرفت يمينًا، فوجدت ممراً له طابع غير مريح، يشبه أزقة أوروبا في أفلام العصور الوسطى، التفتُّ خلفي، بصرتُ امتداد الزُقاق، وكل ما كان حقيقياً اختفى، أين الشارع؟ وأين أنا..؟

أصوات ظهرت من العدم أجابتني، ترددت ترانيم وتراتيل بلغة أجنبية غير مفهومة بالنسبة لي، لكنها كانت مألوفة، وهذا أرعبني، كان في نهاية الممر حائط كبير به مدخل صغير، رأيت رجلاً يقف عند المدخل، يرتدي عباءة بنية واسعة من صوف، ولها غطاء رأس كبير، غطا به رأسه، فلم يظهر منه أي شيء، يمسك عصا كبيرة في يمينه أطول منه قليلاً، حركّ يده اليسرى، وأشار لي بأصابعه أن أتبعهُ، استدار ومشى، فتبعتهُ، تملكتني حالة غريبة.

6

أرضية الزقاق كانت من حجارة سوداء باهتة اللون تميل إلى الرمادي، أكملت السير خلفه داخل أزقة تتفرع كلها من بعض كأنها متاهة، لماذا لا أقترب منه وأسألهُ من يكون..؟

حافظتُ على المسافة بيننا، لا مباني حولي، فقط جدران ملساء من طوب بني اللون، يُرى عليهن أثر الزمن، وكلما عرجنا إلى زقاق جديد، وجدت جدارًا يفصل بينهما، به فتحة قمتها على هيئة نصف دائرة، كمدخل وحيد يأخذني من زقاق لآخر.

هواء بارد يصفعني كلما قطعت الأزقة، قشعريرة أصابت مسام جلدي، ضممتُ ذراعي حول بطني، أصوات الترانيم باتت أكثر وضوحًا، تحول الكلام لآهاتٍ لها طابع نغمي، ومعازف تثير الخوف وتحفزه أن يتزايد.

نصف ساعة من السير أوصلتني إلى بناية متوسطة الحجم بها باب حديدي صغير مغلق، رُسم عليه صليب في منتصفهِ، لا بُدّ أنّ لرسم الصليب بهذه الطريقة دلالةٌ، إذ إنه لا يُشبه الصليب على الكنائس.

قطع تفكيري الرجل وهو يطرق الباب مرتين، بين كل واحدة والأخرى بضع ثوانٍ، فُتح الباب دون أن أرى فاتحه، لم يلتفت لي الرجل، اكتفى برفع عصاه مشيرًا لي بالانتظار، ثم دخل وأغلقَ الباب.

مكثت نحو خمس عشرة دقيقة أتلفت حولي منتظرًا، أين أنا وماذا يحدث؟

كادت الحيرة أن تقتلني لولا أن الباب فُتح من جديد، وظهر الرجل مرة أخرى، غطاء الرأس لا يُظهر منه أي ملامح، كأنه شبح، بأصابعهِ الطويلة أشار لي أن أتقدم، فدخلت خلفه، ساقيّ ترتعشان، أسناني تصطك من البرد والذعر، إلا أنه فاجأني ورمى لي عباءة مثل عباءته، ارتديتها على الفور.

أمرني بالإشارة أن أغطي رأسي مثله، ففعلت، استدار ومشى فتتبعت خطاه، دخلت وراءه إلى مكانٍ ذي سقف مرتفع، زُيِّنَ برسومات قبطية قوطية، الجدران ملساء، لكنها امتلأت بنقوش وصلبان، علّقَ عليها بمسافاتٍ متساوية مشاعل للإضاءة.

وصلنا إلى قاعة كبيرة، لها قبة عالية مجوفة، رُسمت داخلها رسوماتٌ أخرى لكنها ليست دينية، ربما دلت على لحظات تاريخية في حروب شتى أو ما يقربُ من ذاك، جدران حمراء امتزج بها اللون الذهبي الباهت، وعلى الأرض وضعت آنية نُحاسية تخرج منها النيران.

وتحت القبة عند نهاية القاعة، رأيت ثلاث درجات تقود إلى طاولة خشبية مستطيلة كبيرة، ثبتت فوقها شموع بيضاء بأحجام مختلفة، وكؤوسٍ من فضة، وكتاب كبير مفتوح، عندما اقتربنا منه رأيته بوضوح، ووقفت في ذهول، كان الكتاب يحتوي على نفس الرسومات والكلمات التي يحتويها الكتاب الذي قرأته مرارًا، وأحفظُ ما بداخله عن ظهر قلب، خرجت عن صمتي وسألت:

- ممكن تقول لي إنت مين؟ لو هتموتني اخلص وموِّتني بدل كل اللي بيحصل ده.

لم يلتفت أو يهتم بكلامي، اكتفى بتحريك يده أن انتظر، أمسكَ شمعة كبيرة، أمالها، قطرِّ بعضَ قطرات منها على الكتاب، وحركِّ إصبعه في الشمع بحركات دائرية، فظهر رسمٌ لبوابة خشبية سوداء، علّقَ عليها رأس غراب تتساقط منه الدماء على الأرض والبوابة..

أصوات نعيق ملأت الأفق، مع ارتفاع همهماتٍ بترانيم، عاد البرد يضرب أوصالي، والعباءة الصوفية فقدت مهمتها بالتدفئة، أما الرجل فكان ثابتًا لا يتأثر بشيء، يتمتم مع الترانيم، يهمهم بتضرع، تآكلتْ الشموع حتى انطفأت جميعًا، ومن خلفها كل النيران في القاعة، ساد الظلام والبرد، ما جعلني أشعر كأنه ألقى بي حياً داخل قبرٍ مظلم في أرض جليدية، دفعني الخوف للكلام، فقلت بغضب:

- أنا عايز أفهم اللي بيحصل ده معناه إيه؟

حركِّ الرجل الكاهن رأسه يمينًا نحوي، كان بطيئًا إلى الحد الذي يجعل القلب يتوقف، والنفس تفضل الموت ولا تنتظره، أزاح غطاء رأسه، وهنا دُهلتُ، لا كاهن هنا، بل رأيت امرأة، كانت الفتاة عند البوابة الأولى، ولكن بملامح امرأة ناضجة، لم تعد تلك الفتاة ذات الملامح الطفولية، وهنا تداخلت ذكرياتي، وعبرت أمام عينيّ بسرعة البرق، هذه الملامح أعرفها، لقد رأيتها مرة أو عشر مرات في السابق، لكن.. أين ومتى؟ اللعنة على الذكريات، اللعنة على كل شيء.. سألتها:

- أرجوكِ جاوبيني. إيه بيحصل بالظبط؟

وضعت سبابتها على رسم البوابة في الكتاب، ثم حركت السبابة والوسطى كأنهما يمشيان، ففهمت أنها تريدني أن أكمل الطريق.

رغم أن المكان مظلم، إلا أنني أرى جيداً، رؤية لا تدركها عيني، حاسة أخرى غير مادية تجعلني أبصر ما يفوق إبصار العين، كأنني داخل حلٍم، أرى أشياء وأشعر بها، لكنها ليست حقيقة، أو لها دلالات في الحقيقة.

تحركت المرأة نحو الباب الذي دخلنا منه فقطعت تفكيري، تبعتها دون إرادة منِّي، قبل أن تخرج، غطت رأسها مرة أخرى، خرجنا إلى ردهة عملاقة، ارتفاع سقفها يقرب من عشرين مترًا أو أكثر، رفعَ سقفها على أعمدة نُحتت بإتقان على هيئة تماثيل شتى، أعتقد أنهم رجال دين مسيحي، أو بعض القديسين، وبين كل عمود وآخر مسافة، تسكن كل مسافة نافذة خشبية صغيرة، كانت الأرضية من الرخام اللامع، وتصطف مقاعد خشبية على الجانبين، صانعة صفين بينهما طريق يؤدي إلى نهاية القاعة، حيث وجدت تلك البوابة التي رأيتها في الكتاب.

وقفت المرأة أمام البوابة، تمتمتْ ببعض كلمات، ثم حركت سبابتها بشكل دائري في

الهواء، وبعد أن أنهت طقوسها التي لم أفهم منها شيئًا، دست في كفي مفتاحًا آخر ثم غادرت من حيث قدمنا، أردت اللحاق بها فلم أستطع، لم تنصعَ قدماي إلى أمري لهما بالتحرك، ناديتُ عليها:

- جاوبيني.

لم تجب، ابتلعها ضبابٌ لا علم لي من أين ظهر.

7

فُتحت البوابة، أصوات الخشب والسلاسل الحديدية بات مألوفًا على مسامعي، ثم ساد الصمت للحظات، لمحتُ رأس الغراب معلقَّة في قمتها، قطرات الدماء كان لها صوت مخيف، كلما لامست الأرض ارتجف قلبي، اقتربت وأنا أريد وضع حدٍّ لكل هذا العبث، حتى إن كان الموت، وقفت عند المدخل، توقفت الدماء عن التساقط، سمعت صوتًا يقول:

- إيه يا أستاذ، إنت نمت، ولاَّ أنت مجنون ولاَّ مالك؟

كان رجلٌ في منتصف الأربعينيات، يحمل «صينية» من الألومونيوم، عليها كوب زجاجي غير مملوء بالكامل، وكوب آخر به بواقي بن، عاد يقول:

- إنت بقالك 4 ساعات نايم، طلبت القهوة ومشربتهاش، وكل ما آجي أسألك ولاَ أكلمك، ألقاك بتبص لي وتبرق، لو مجنون، روح اتجنن بعيد عننا.

لم أجبه، لم يخطئ الرجل، أنا مجنون بالفعل.

«أحيانًا أشعر بها تتحرك فى أعماقي وتقول لي: أنا هنا أيتها الحمقاء، أنا حية، أعرف خواطرك وأحلامك، وهذا الجسد لا يسع سوى واحدة منا، ولن تكوني أنتِ.»

د. أحمد خالد توفيق

أخرجتُ كتبي وفتحتها، أمعنتُ النظر بكل صفحة، وسألت نفسي: هل يمكنني استخدام هذه الرموز في الخير وليس في الشر؟

فُتح الباب ودخلت أمي، ولا أعرف كيف فتحتْه، كنت قد أغلقتُه بالمفتاح، وضعَتْ ملابسي النظيفة في خزانتي وأطفأت ضوء الغرفة وخرجت، قمتُ من زاويتي، فتحت الباب وخرجت، فرأيتها تجلس مع شبيهي، ابتعدت الصالة كأنها تتحرك، بعدت حتى اختفت عن نظري، ووجدت نفسي أقف في الخلاء، لا شيء أمامي، ولا شيء خلفي، حتى غرفتي اختفت،

السواد يملأ الفراغ، وضوء أبيض بسيط كضوءِ القمر مسُلطٌ عليّ، دُرتُ حول نفسي في تشتت، أبحث عن أي شيء يدلني أين أنا، فلم أجد سوى مزيد من السواد.

تك.. تك.. تك.

أصوات عقرب الثواني لساعة تبدو من صوتها عملاقة، لهذا مدلول ما لا أفهمه.. ربما نفد الوقت، أو ينفدَ.. قرقعة حذاء نسائي يلامس الأرض في تؤدة - أعرف وقعه بسهولة - اتخذت قراري بالمشي ناحيته، كان آتيًا من أمامي، مشيت بصحبة الضوء الأبيض الباهت، كأنه حارس شخصي لا يفارقني، شعرت أنني شخصية للعبة حاسوب أو ألعاب الهواتف المحمولة، يحركِه أحدهم عن طريق ذراع تحكم.

- بلاش الطريق ده يا ماجد، الكتب دي هتوديك في داهية.

التفتُ إلى يساري بسرعة، كان معاذ صديقي واقفًا، يُحذرّني، وقد امتعض وجهه، فهمت هذا من إشارة إصبعه، ومن ثم اختفى.. «تك، تك، تك».. عقرب الساعة يدق أكثر، سمعته من جهتين.

- أهلاً بيك يا أستاذ ماجد. أنا هنا عشان أسمعك.

جاء الصوت من خلفي، أراني أجلس في عيادة طبيب، اختصاصي نفسي كبير، هاجمتني الذكريات مرة أخرى، عبرت أمامي، لكن هذه المرة بصورة أوضح قليلاً، أعرف هذه العيادة، أتذكر أنني قد لجأت له - أي الطبيب - مرة في وقت سابق، عندما شعرت أن قراءاتي لهذه الكتب أفقدتني نفسي، رضخت حينها لإلحاح معاذ عليّ أن أزور طبيبًا نفسياً، ورشح لي اسمًا، لكن لا أتذكره الآن، ولا أعلم حتى لماذا ذهبت إليه فعلاً، ربما كنت أحتاج تفريغ ما بداخلي.

- لا.

سمعت نفسي أقول هذا، فنظر إليّ مستغربًا، فقلتُ:

- لا.. إنت هنا عشان ده شغلك، عشان دي مهنتك، مش عشاني أنا.

لا أريد نصيحة من أحد، هؤلاء الأطباء يريدونني أن أتكلم فحسب، والعلاج لا يأتي بنفع، إن الرجل منهم لا يملك أي علاج، يستمع فقط، والحلول المقترحة متداولة «حب نفسك، ثق بها.. إلخ».. حديث مرسل لا جدوى منه، الأطباء المتخصصون في الأمراض العضوية، يستطيع الرجل منهم تشخيص العلة بسهولة، ثم يصف للمريض ما يناسبهُ من دواء، لكن هذا الرجل لا يسعه فعل شيء يجدي نفعًا، قطع تفكيري فقال:

- قول لي طيب.. إيه سبب زيارتك.

- تخيل شاب ضيع من عمره 30 سنة دراسة، و10 غيرهم مطالعة وبحث، ويمكن أكتر، قرأ مئات بل تخطى الألف كتاب، بيسأل واحد دفع مبلغ وقدره في تذكرة الكشف، وقاعد قصاده عن سبب الزيارة.. عندي احتقان في الزور يا سيدي.

ضحك وقال:

- واضح يا أستاذ ماجد إنك بتحب النقاشات الفلسفية.

- أو عارف إنك ما تملكش مساعدتي، يعني.. مجرد لعبة معينة عشان تستشف من وراها حاجة تدلك على تحديد العلة، خليني أقول لك مباشرةً، أنا هنا لسببين، الأول إني مش عارف أنا هنا ليه، والتاني هو إني مش محتاج نصيحتك.

كتبَ شيئًا في دفتر ملاحظاته، ثم سألني:

- بتفكر في إيه دلوقتي؟

- لعنة العقل.

- وإيه هي لعنة العقل من وجهة نظرك؟

- إنك تدرك الغلط، لكن مش قادر ما تعملهوش، تبقى عارف إن المقابلة دي بدون جدوى، بس كان لازم تحصل، تبقى عارف إن تفكيرك هيقودك لمصير مجهول، بس تعمل كل حاجة عشان تروح المصير ده. إنك ما تقدرش تغيرّ

حاجة، تسمع وبس، تطيع كل الأوامر، بمزاجك أو غصب عنك.

- شكلك بتحب تقرأ كتير.

- هو ده سبب اللعنة - يمكن - فان جوخ كتب في رسالته الأخيرة لأخوه ثيو: «ما الذي يصنعه العقل بنا؟ إنه يُفقد الأشياء بهجتها، ويقودنا نحو الكآبة». كأنه بيوصفني، ده أنا بالظبط، مشيت ورا أضغاث عقلي، رغم إني عارف إنها لا تتعدى كونها أضغاث، بس صدقتها.

- كلمني عن اللي نفِسك فيه.

- اللي أنا عايزه، ولا اللي في نفسي؟

- هتفرق؟

- فان جوخ كان مغيبّ، أنا لا، لأني أدركت الحقيقة الأكبر، وطبعًا تفرق، ده هو ده الفرق اللي عايشين نتعذب بسببه، أنا عايز آكل وأشرب عشان أعيش، فأسعى إني أعمل خير، وأفوز بالدنيا والآخرة، إنما نَفسي دي شخص غيري، بتطلب كل حاجة أنا رافض أعملها. وبتجبرني على الفعل.

- بس نَفسْكَ هي الغريزة، إذًا إنت هو نفسك.

- الغريزة هي الأسباب الرئيسية للحياة، الأكل والشرب والصحة، أي كائن حي لو فضلِ من غير أكل وشرب بالكتير أسبوع ويموت، كل واحد فينا سمع أكيد عن كائن غيره مات من الجوع أو الجفاف، إنما

عمرك سمعت إن كائن حي مات لعدم الزواج مثلاً.. أو لأنه كان نفِسه يشرب خمور أو مخدرات، أو يسهر في بارات، أو ماقدرش يجمع 600 مليار دولار في حياته فمات من الحسرة لأنه جمع 500 بس، أو اتغلب على شغفه اللي بيقوده للشر فمات؟

- كمل.. عايز أسمعك أكتر.

- أنا عايز السلام النفسي، وعايز المغامرة، أحقق السبل المشروعة وغير المشروعة، ما أشوفش واحد أضحك له ونَفسي بتكرهه، ولا أشتهي الملذات.. بس نَفسي بتعملها، نَفسي اللي أنا شايفها شخص أقوى مني بمراحل وبيقدر يوجهّني بكل سهولة لكل شيء أنا رافضه، لكن أنا بعاني كل المعاناة لحد ما أقدر أهزمه في جولة لا تُذكرَ، وعشان كده سميته (العين الحمرا) كانوا أهالينا زمان لما يحبوا يخوِّفونا ونستجيب لكلامهم، يقولوا لنا إنتوا مابتجوش إلا بالعين الحمرا، وأنا مفيش حاجة بتجبرني على فعل الشيء اللي أنا مش عايزه إلا نفسي «العين الحمرا» وعشان كده مشيت في طريق البحث، المعرفة، بس مش بالطرق المشروعة الممكنة وبس، أنا مشيت طريق البحث عن اللي ماينفعش أعرفه، بقيت أبان قصاد الناس شخص سوي، وبيني وبين نفسي عندي علة، وبصراحة، يمكن أتظاهر إني عارفها، بس في الحقيقة أنا مش عارفها..

- بس إنت تقدر تهزم نفسك يا ماجد.

- ليه إنت كطبيب نفسي عامل عيادة ومسعر الكشف بـ 400 جنيه؟

- لأني تعبت واتعلمت، وده كان ليه مقابل معنوي ونفسي وجسدي، بالتالي حقي أجني ثمار تعبي.

- وإن جالك محتاج مامعهوش حق الكشف؟

- أكيد يعني هرحب بيه بدون مقابل.

- وهل الفقير المكتئب اللي الحياة شبعت فيه ضرب وطحن، هيقدر يدرك احتياجه لطبيب نفسي؟

- إنت عايز توصل لإيه؟

- حضرتك معلق أي لافتة أو ورقة بتقول إن الكشف مجاني للمحتاجين؟

- أنا تخصصي خاص جداً، ومش كل الناس بيمتلكوا الجرأة عشان يزوروا دكتور نفسي.

- يبقى نفسك سيطرت عليك، ولأنك تعبت فحقك تجني الثمار، ولأنك صاحب عِلْمْ ورسالة خاصة، فكان لازم تنزل للناس بنفسك، ورغم إنك غالبًا مدرك ده، إلا إنك بشكل أو بآخر ممتنع عنه.

- إنت مريض اكتئاب حاد، وفصام.

- أنا الاكتئاب نفسه يا دكتور.. والأهم إني عارف العلة، وإني مش محتاج لك..

9

اختفى المشهد، عادت أصوات عقرب الثواني «تك.. تك.. تك» ومعه قرقعة كعبيها أسمعها من جديد، الظلام يلتهم المكان حولي، أترنحُ في العتمة، أثر الأصوات ازداد رعبًا، دقات قلبي أضحت مسموعة، صوتها يختلط مع صوت الحذاء وعقرب الساعة، ثم توقف كل شيء، الصمت قاتل محترف، يتربص بفريسته في العلن دون اختباء، والقدر يحكم بأحكامه عليها، انشغل ذهني وعقلي بكل ما جَاهدتُ نفسي من

أجل نسيانه، ثوانٍ ثم دقائق ثم ساعتان، الوقت بطيء وممل، والخوف حية سوداء تنتظر اللحظة المناسبة لقتلي، قلت:

- أنا مستني تظهري تاني.

خاطبت البنت/ المرأة كأنها أمامي:

- أنا خايفة على الواد أوي، بقى غريب وأفعاله أغرب.

صوت أمي اخترق الصمت، بل اخترق نفسي ومسامعي، على يميني ظهرت أمي تتحدث إلى إحدى صديقاتها من الجيران، أردفت تقول بعدما مسحت عينيها من الدموع:

- مش عارفة إيه بس اللي صابُه، من يوم ما بقيت أشوفه جايب الكتب اللي بيجيبها دي وحاله اتشقلب، بقى على طول تايه، تقريبًا ما بشوفهوش يخرج من أوضته غير صدفة، وإن شفُته بيبقى كأنه مش هو، مش هو ماجد ابني اللي أنا أعرفه. ده حتى لو سمحَ لي أدخل عليه أوضته، بلاقيه واخد ركن وقاعد مابيتحركش، حتى الشغل سابه.

توقعت أن يختفي المشهد، لكنه استمرّ، أراني دخلت غرفتي وأغلقت بابها، لم ألقِ التحية عليهما، تذكرت هذا الموقف، شعرت أنه قد محُي من عقلي ثم عاد مرة أخرى، أصبح عقلي لا يحتفظ بالصور بصورة دائمة، كأنما هناك شخص ما يمسح اللقطات ويعيدها حسب رغبته.

هنا اختفى المشهد، وتبددّ الظلام، ووجدت نفسي داخل الزنزانة المألوفة، والتي تشبه غرفتي، أجلس كما كنت أجلس في الرؤية، منكمشاً عند زاوية الغرفة، وهناك ظلٌ يتراقص على الحائط أمامي، خفتُ، عبرّتُ عن خوفي بصرخة وحركة للخلف، تحرك الخيال من فوق الجدار إلى الأرض في انسيابية بالغة، فلم يعد خيالاً - بالمعنى الحرفي - إنما خيال ماثل أمامي، كرجل مثلي، لكنه خيال دون أي ملامح، سألته:

- عايز إيه منِّي؟

- ولا حاجة.. إنت اللي دايمًا عايز، إنت اللي رغبتك مسيطرة عليك.

- أنا ماطلبتكش.

- لا طلبتني.

- أقصد.. أقصد ماكانش قصدي أطلبك، أنا كنت بقرأ الكتاب عادي، ومن يومها وإنت ملازمني.

- مش مهم الطلب يكون بصورة مباشرة، المهم إني لبّيت طلبك. والكتاب وسيلة زي غيره، المهم في الموضوع رغبتك إني أكون موجود.

- أنا مش عايزك تكون معايا، أنا عايز حياتي الطبيعية.

- ما كانت كده فعلاً وإنت اللي اخترت تخليها مش طبيعية.. على فكرة، إنت تقدر تعيش هنا.

- هنا فين.. في الزنزانة.

- إنت اللي عملتها مش أنا.

- هكسرها.. أنا فُقت لنفسي خلاص.

- ما أفتكرش هتقدر تعمل كده، دي أوضتك عادي، بُص حواليك، الموضوع مألوف، بس إنت اللي بتقرر، إمتى تكون أوضتك وإمتى تكون زنزانة.

رائحة أمي ملأت رئتيّ، صوتها انبعث من داخلي، فقلت بثقة:

- هقدر.. هقدر وهرجعك مكانك الطبيعي.

أجاب بثقة أكبر وهدوء لم أتوقعهُ:

- أنا في مكاني فعلاً.. وإنت برضو في مكانك، إنت اللي جيت عندي، مش أنا اللي جيت عندك.

صرخت، وثبت من فوق سريري كالمجنون، العرق يسيل منِّي، حرارة جسدي مرتفعة، أنفاسي تهدجت، جف ريقي، حينها اقتربت أمي وضمتّني، قالت:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. إيه صابك بس يا حبيبي.

بالكاد استطعت التقاط أنفاسي، فمسحت أمي العرق عن جبيني وجبهتي براحة كفها، ثم رددت آية الكرسي ثلاث مرات، هدأتُ، طلبت منها بعض الماء فلبتّ، شربتُ فذهب الظمأ، استأذنتُها ودخلت إلى إلى وجهي في المرآة، وجدتُ وجهي شاحبًا مذعورًا، الحمّام، نظرتُ برزت عظامه كمومياء محنطة، إثر الإرهاق والنوم المتقطع، واجهتُ نفسي مسترجعًا كلّ شيءٍ، لقد كان حلمًا، حلمًا حقيقياً، مصطلح غير منطقي، وهل ما يحدث لي به منطق؟

لا شيء سوى الخيال، الخيال الذي يمثل الحقيقة، كل ما أمرٌ به هو داخلي فقط، وأثره يظهر في الحقيقة، لكنه لا يحدث إلا داخل عقلي، يرسم لي الخيال أشكالاً غريبة، طرق مزيفة وحقيقية، حوارات لا أتذكر حدوثها، تعود بي إلى النقطة التي أتشتت عندها.

ربما أنا مشتت مثلك، نعم أنت.. كلانا مشتتٌ الآن، وهل لكل هذا أن يُعقَل، نحن معًا في الزاوية، أنت تراني وأنا أراني كذلك، الغرفة طبيعية معتادة، وفي لحظة تتبدل إلى زنزانة مألوفة كغرفتي تمامًا، أنتَ تشهد على هذا، لكن لا تفسير.

أنى لي أو لك هزيمة أنفسنا، مخاوفنا، أهواؤنا، الغرفة كئيبة وجميلة، والظلمة موحشة وآمنة، العالم خارجها أسوأ، والحياة فيها غريبة رغم هدوئها.

10

خرجت من الحمّام، وجدت الفتاة المرأة تقف أمامي، ترتدي فستان زفاف، أعطتني مفتاحًا آخر، ثم أشارت بيدها نحو الفراغ، فلم يعد فراغاً، ظهرت لي البوابة التي علّق عليها رأس الغراب مجددًا، «في أي مرحلة أنا؟» سألتها، فلم تُجب..

دوامة بداخلها دوامة، متاهة تتشابه طرقاتها، أنا أمام طريقٍ جديد داخل المتاهة، بعدما اجتزت سابقيه، وأصبحت أكثر خبرة، أعبر البوابات والعوالم.

عندما انتبهت لنفسي كانت الفتاة/ المرأة قد اختفت، اقتربت من البوابة وفتحتها، فسقطت رأس الغراب على رأسي، هذا كل ما أتذكره.. لأنني فقدت الوعي إثر سقوطه فوق رأسي.

***

التهبَ أنفي؛ إذ التقطَ رائحة نفاَّذة جعلتني أفيق، كما لو أن أحدهم مررِّ على فتحتيهِ «جاز»، فتحت عينيّ، كنت داخل غرفتي، جيوش الصداع اجتاحت دماغي، رأسي ثقيل بحجم فيل ماموث، جسدي يؤلمني، تحسست ذراعي فآلمني أكثر، تلونِّ جسدي ببقع زرقاء داكنة تملؤه، كتبي إلى جانبي عند زاوية الغرفة، قرأتُ في الكتب للمرة المئة، لكن وقعْها على نفسي كأنها المرة الأولى، هناك ما يختبئ ما بين السطور وأنا لا أفهمه، أو أن الأمر كله ينبع من داخلي، ولا علاقة له بالكتب، يجب أن أهزمُ نفسي، يجب أن أنتصر على «العين الحمراء» التي ترعبني.

جمعت كل الكتب وحزمتها، بدلت ملابسي وخرجت دون أن ألتفت لنداء أمي، صعدت الدرج إلى سطح البناية وألقيتُ بالكتب داخل برميلٍ قديم، وأشعلتُ فيها النار، تصاعدت ألسنة اللهب، كانت النار مبالغًا فيها، ليست نارًا ناتجة عن احتراق بعض الورق، وإنما كانت ناتجة عن احتراق أوزارًا اقترفتها في حق نفسي.

رأيت الظلام يقترب، يأكل المباني ويملأ الفراغ، ابتلع كلّ شيءٍ في طريقهِ، إلا أنا والنار، رغم أنه تعدآني، جاء من أمامي وخلفي ويميني ويساري وفوقي وتحتي، كل شيء أصبح تحت سطوته وهيمنته وحكمه، النار تشكلت على هيئة مخلوق دميم، لا.. كان أنا، أنا في هيئة عجيبة وغريبة، لكنه أنا، ألسنة اللهب كانت لا زالت عالية، والذي في هيئتي ينظر إليّ بنظرة توعدٌ، ربما يقول: «أنا هنا لأقتلكَ».

خمنت أني رأيته سابقًا داخل نفسي.. صورٌ متفرقة تمرٌ على ذهني، أتذكر أني قد رأيت هذا من قبل، أنا على يقين، قلت لهذا الغريب الذي يشبهني:

- أنا بقيت أخاف منك.

- إنت طول عمرك بتخاف مني، أنا اللي بتحكم في توقيت الخوف.

- أنا اكتفيت من كل الأمور اللي وصلت لها بسببك، ابعد عني، ابعد.

- لا إنت ما اكتفتش، أنا اللي قررت إنك تكتفي مؤقتًا، وأنا اللي أقرر إمتى أقربِّ، وإمتى أبعد.

- بس إنت ملكش عليا سلطان، أنا أقدر أتحكم فيك.

- مفيش مخلوق ليه سلطَان على التاني؛ لأن المكان مش مِلكه، هو هنا عشان ينفّذ الأوامر، أنا كمان هنا عشان أنفذ القسم.

- أنا أقدر أحرقك وأنهي وجودك.

- واضح إن الروايات الهابطة اللي بتقراها أثرَّتِ عليك، أنا مهمتي انتهت هنا، وقررت أمشي.

- مش بمزاجك، إنت وصلّتْنِي إني أبقى عايش في عالمين مختلفين، لا بقيت عارف أنا اتجننت ولا عاقل ولا بحلم ولا إيه بيحصل لي بالظبط!

- لا.. إنت اللي كنت عايز دافع عشان تعمل كل ده، أنا معملتش حاجة. إنت اللي جريت ورا شغفك، اشتريت الكتب، قريتها، مارست الطقوس وعزمت بالطلاسم. أنا جيت عشان أساعدك تحقق كل اللي إنت محتاجه.

- وسوست لي، أغرتني، إنت السبب إني أكون كده.

- قلت الحق، أغريتك، بس ما أجبرتكش، ما ربطتكش وشربتك الخمرة، ولا خليتك تستحمى بيها في الحمّام، ولا تدبح القطط، ولا تعمل الطقوس على ملابس أهل بيتك الداخلية، إنت الشيطان مش أنا.

- بس أنا ماعملتش كل ده، إنت كذاب.

- أنا قلت لك، أنا هنا أنفّذ القَسمَ، وإنت استجبت؛ لأنك عايز كده، مش شرط تنفذه في الواقع، إنما نفذت كل ده في خيالك.

- إنت مجرد ضلال، صوت بيكذب عليّا، أنا تخيلت آه، بس عمري ما أجرؤ أنفذ.

- أنا زي ما تحب إني أكون، في الخيال، أو في الحقيقة.. حسب رغبتك واللي تقدر تنفذه، وأياً كان اختيارك، أكون معاك.. ما إحنا واحد.

- يعني مش هتساعدني؟

- لو تقدر إنت تساعدني، هساعدك.

- هتوب لربنا، وهرد لك كل اللي عملته فيّا.

- توب، أنا أحب إنك تتوب، ما أنا بقولك إحنا واحد، لو إنت تُبتْ، أنا هكون زيك، ولو حبيت تعمل مغامرة جديدة، هتلاقيني برضو معاك،

ونعمل مع بعض مغامرة جديدة، بس تفتكر لسه فيه وقت تتوب، أو تصححّ المسار، هو إنت غلطت أصلاً؟

- الوقت عمره ما يفوت أبداً.

- ولو إنت دلوقتي ميت؟

- ميت إزاي، أنا عايش وبكلمك أهو.

- مش يمكن بيتهيألك، وإنت ميت فعلاً، فارقت الدنيا خلاص، ووقت التوبة عدىّ وولى.

- إنت بتخدعني تاني، عايز منِّي إيه؟

- ولا حاجة، أنا صوتك التاني، بفكر معاك مش أكتر، وعشان كده بفكرك، هتقابل أمك والناس إزاي؟ الكل هيشاور عليك ويقول الساحر الدجال أهو، تخيّل إن كل اللي حواليك ينبذك، وكل عين بتشوفك كارهاك.. يلا.. انقذ نفسك، مش هتتحمل أبداً كل ده.

- تاني هترجع تقول كده، أنا ما عملتش حاجة، كلها حاجات كانت في خيالي وبس.

- يمكن عملتها وإنت فاكر إنها في خيالك وبس، صدقني مش هتقدر تواجه الحقيقة.

- أنا فعلاً خايف. "

- لا ماتخافش، دي سهلة جداً، بُص للشارع، هو قرار بسيط، وترتاح من كل همك ده، وترتاح مني كمان.

- عندك حق، هي لحظة وهرتاح، أنا واقف وشايف الشارع من ارتفاع يعدي 50 متر، بس...

- افتكر نظرات الناس، كلامهم وهما بيشاوروا عليك إنك فاسد، إحساس أصعب من الموت بكتير يا ماجد.

اصطدم ظهري بالأرض، واقعًا ممددًا على

أرض غرفتي، لا زلت حياً، تأكدت من هذا عندما سمعت صوت معاذ يصرخ:

- عايز تموتِ نفسك ليه؟

مسحت ما حولي بنظرات حيرة، عدم استيعاب سيطرَ على كل مواطن إدراكي، ملقى على الأرض، أمي تبكي، ومعاذ ينظر نحوي بشفقة وغضب، لا نارَ، ولا أثر لأي شيء يدل عليها، الغرفة كما هي، كل شيء في موضعه، من الواضح أنني قفزت من فوق السرير، لكن إن كان هذا ما حدث فعلاً، لماذا يؤنبني معاذ على فعلة قتل نفسي، صاح معاذ ثانيةً في وجهي:

- إنت بتعمل كده ليه؟ لا بقيت تيجي الشغل؟ ولا بتخرج من أوضتك، ولا بترد على تليفونات، إيه حصل لك؟

نظرت إلى أمي وقلبي يتمزق، ثم نظرتُ إلى معاذ ولم أجد كلمةً واحدةً تعبِّر عن شيء بداخلي، هنا عاد لي استيعابي الكامل، وشعرت أن شيئًا سميكاً يلتف حول عنقي، انتبهت له، إذ وجدت حبلاً معقودًا حول رقبتي، والسقف به حفرة متدلٍّ منها خطاف مكسور، منَ فعل بي هذا؟

لا أتذكر، الصور تتراقص، تثبت وتختفي رغمًا عني، صداع في رأسي كقرع طبول حرب، هل كل ما أنجرف إليه حقيقي، أم أوهام داخل نفسي من صنع خيالي..؟

مدّ معاذ يدهَ لأُمسك بها كي يساعدني على القيام، اتكأت على ساعده وقمت، استندتُ على كتفه وأنا أشعر بالإنهاك والتعب، ضربات قلبي سريعة، وأعصابي انهارت تمامًا، خطوتان حتى بلغت سريري، ثم جلستُ، استندت بظهري إلى مسند السرير وسألتهما:

- هو أنا كنت هنتحر فعلاً؟

قال معاذ:

- إنت مختفي من فترة، جيت أشوفك، أمك قالت إنك قافل باب الأوضة عليك، فضلت

أخبط، وأخبط، وإنت ولا هنا، ولا كأنك سامعني، رغم إني كنت سامع حركتك جوه، وعارف إنك مش نايم، فضلت أنادي عليك، وبرضو ماكنتش بترد، وسمعت ساعتها صوت حاجة بتتهبد في الأرض، كسرت الباب، والحمد لله إن ربنا ساب لك فرصة جديدة ومامتّش.

الكتاب في مكانه.. على الأرض عند زاوية الغرفة، أشعر أن كلّ ما رأيتُ يطوف حولي، الرجل العجوز الغامض، الفتاة التي كانت فتاةً ثم غدتْ امرأة ولم تعد بعدها أبداً فتاة،

أعرفهما، أشعر ذاك الشعور الدفين أن هناك علاقة ما جمعتني بهمها، لكن.. أين ومتى وكيف؟

لا أتذكر، تشويش يطوقِ عقلي، وغربان الذاكرة تحلّق بلا هوادة، شريط منها - الذكريات - يُعرضَ على عيني بسرعة رهيبة، كسيارة من طراز «فيراري» تقطع مزمار سباق «فورميلا وان» دون توقفٌ، أنا من صنعت كل هذا أم الكتب، أم هناك ماذا..؟

- إحنا بنكلمك وإنت في وادي تاني خالص.

قالها معاذ فقطع حديثي إلى نفسي، وهو يضرب كفاً على كف من غيظه، فقالت أمي بوهن:

- قطعت قلبي عليك يا ابني، أنا لازم أشوف لك شيخ، مش هسيبك تضيع منِّي.

حاولت أن أكون وحدي، لا بُدّ أن أعود إلى البوابة التي علّقَ عليها رأس الغراب، وكان لي ما أردت، غادر معاذ إلى منزله، وتركتني أمي منفردًا بنفسي كما طلبتُ منها، وبعد أن غادرا، تأكدت أن باب غرفتي مغلق بإحكام، وجلست عند الزاوية، أغمضت عينيّ وأنا أتمنى أن أعبر هذا الكابوس في سلام..

صوت البوابة يعلن عن فتحها، نعيق الغربان يتردد في الأرجاء، حفيف أوراق الشجر يمتزج مع صرير الريح، وأنا أقف أسفل البوابة، أنظر إلى أكوام من القمامة قد أحاطت بمقابر قديمة، شواهد قبورها مفتوحة ومكسورة، والسواد يخرج منها على هيئة دخان، الكلاب تنبح، والضباب ينتشر، الخوف يعبث بي، يقذف بنفسي داخل سراديبه، فيجعلني أريد أن أهرب منه، لكن هذه المرة أنا له...

خطوت في الممر الذي شقّ الطريق بين القبور، فجاء صوت ينادي باسمي، صوت أشعر أني أعرفه، لكن هذا لا يعقل، أيكون هو، صوت الرجل العجوز؟ قال:

- خليك ورا صوتي.. أنا من دلوقتي دليلك.

كانت نبرته مألوفة، انطبع صوتُه داخل عقلي، رغم أنني لم أسمعه إلا مرة واحدة فقط، الذكرى هنا التصقت في ذاكرتي، الصوت اختفى، أين أذهب الآن؟

قال إنه سيرشدني، سيرشدني إلى ماذا؟، الأسئلة لا تعد، ولا إجابات.. بعد قليل الضباب حجبَ الرؤية، وقفتُ في ريب من أمري، سيخرج من هذا الضباب - بالتأكيد - كيان ما يأكلني، أو يقطع رقبتي بسيفه الضخم البتار، هكذا خرج «الملك الأبيض» من الضباب معُلنًا عن نفسه في رائعة «لعبة العروش» للكاتب «جورج مارتن»..

لكنه الخيال الجامح، الذي يبدده الواقع سريعًا، انقشع الضباب، وعادت الأمور إلى نصابها الطبيعي، لا شيء مما رأيت، لا ضباب، لا سواد، لا قبور مكسورة، فقط قبور اعتيادية كما نعهدها، ووصلت إلى آخر نقطة في ممر قطع شواهد القبور، ففرقّهم إلى صفين، نظرت خلفي بسرعة، إذ سمعت جلبة، أبصرتُ غبارًا يتصاعد.

فى بضع ثوانٍ ظهرَ أناس في جنازة، حاملين فوق أكتافهم نعشاً بلا غطاء، لا صوت غير صوت دبيب خطواتهم على الأرض، يمشون في تؤدة مملة، بدا الحمِل ثقيلاً، كأن نزيل النعش يرفض قرارهم أن يأخذوه إلى مثواه الأخير.

حاملو النعش اقتربوا منِّي وأنزلوه إلى الأرض عن أكتفاهم، وما دعا للدهشة، أن الناس ليس لهم ملامح واضحة تُرى أو تُوصف، حتى ملابسهم غير متناسقة، أي غير التي يرتديها الناس كما نعرف، فهناك جلباب فوق سروال قصير «شورت». وعمامة رأس صعيدية فوق بذلة كلاسيكية، الأغرب من كل هذا هو من بالنعش، هذا الجثمان أنا هو، مكفنٌّ عدا الوجه، نائمٌ في سبات عميق سيدوم طويلاً!

لم أبدِ أيِّ رد فعل، بدأ البعض من الناس في حمل الجثمان لإخراجه من نعشه، كي ينزلوه إلى لحده، وسمعت صوت الرجل العجوز الغامض مرة جديدة:

- شيلوا بالراحة، وواحد ينزل معايا عشان ننيمه. قالها وهو يُخرج رأسه من قبرٍ مفتوح، كان منظره كما رأيته في المرة السابقة - الوحيدة - ملابسه منمقة جميلة نظيفة، صوته عميق كعمق عينيه ونظراته..

حملوا الجثمان، ولاحظته هشاً محطمًّا متكسرًا، وعند الرأس من الخلف بقعة حمراء كبيرة، تنم أنها دماء، ثم بين كفوفهم مرروه حتى نزلَ إلى القبر، فعاد من حيث أتى، وما الحياة إلا ومضة.

صوت حجر كبير زحزح على الأرض نبهّني، الرجل الغامض يقف أمامي في ثبات، منتصب القوام، مرفوع الرأس، ينظر إليِّ بعينين تشبهان بئرًا لا آخر لها، نظرة تحمل معاني كثيرة، ولا أفهم مقصداً لها، وقبل أن أتكلم، هجم الضباب وتكثف من حوله، ابتلعه كما تبتلع أسماك القرش فرائسها.

«طق.. طق.. طق».

قرعات على الباب، باب غرفتي، وأنا كما أنا، أجلس متكئًا على مسندي الوثير، سرحًا في السقف، قلت:

- ادخل.

ولا أحدَ يدخل، نسيت أنني أغلقته، نهضت وفتحت، لا أحد بالخارج، ناديت:

- أمي، إنتي فين؟

لم تجب، بحثت عنها، فلا أثر لها.

قرعات على الباب لا زالت مستمرة، فتحت الباب، فكشف عن رجل تجاوَز الخمسين في عمره، ليس غريبًا، إنه عم «شحاته» جاري، أخرج من جيبه نقودًا عدهّا، وقال:

- الإيجار يا ماجد يا ابني.

- خلي يا عم شحاته، واحد والله.

- تسلم لي يا حبيبي، تعيش.

- ثواني أجيب لك الوصل.

- لا على مهلك بقى أي وقت، أنا هلحق صلاة العشاء، ابقى اكتبه وسيبه للعيال في البيت.

بعد أن رحل عم شحاته أغلقت الباب، وتفاجأت بأمي خارجة من المطبخ تقول:

- أعمل لك شاي؟

لا أعلم لمَ تحديداً هذه المرة، شعرتُ أنها غريبة عني، أو أن ظهورَها أرعبني إلى حدٍّ ما، قلت لها:

- لا ارتاحي إنتي.. أنا هعمل قهوة.

كلٌ منا دخل إلى حيث أراد، هي إلى غرفتها، وأنا إلى المطبخ، ومضيت الوقت في صنع القهوة، مشوشٌ الفكر كالعادة، والأسئلة تبارز عقلي، دون أن تقتله، تترك فيه فقط بعض الجروح السطحية ليتألم تألمًا يذكرِّه دومًا بها، الإجابات تائهة.

أخذت القهوة، وخرجت إلى الصالة، جلست أتابع التلفاز، لا زلت متبعثر الفكر، قلبَّت بين المحطات دون أن أحددِّ ماذا أريد، مسلسل قديم، فيلم، مباراة معادة، و... أنا، أنا أظهر

في التلفاز، تحولّت الشاشة إلى مرآة تعكس صورتي، جالسًا إلى كرسي أحولِّ قنوات التلفاز:

- لسه محتار يا ماجد؟

بلعت ريقي خوفًا، قلت:

- إنت مين؟

- كلّ مرة نفس السؤال؟ ما علينا، هجاوبك برضو زي كل مرة.. أنا هو إنت.

- المرة دي أنا زهقت من اللعبة دي، ومش خايف منك، قولّي عايز إيه منِّي واخلص، أنا عارف إنك هنا عشان تخوفني وبس، إنت مجرد شيطان..

قاطعني وقال:

- هحلف لك للمرة المليار إني مش شيطان، ولا جن، ولا مارد، ولا كل الكلام الفاضي ده، أنا فعلاً هو إنت، ليه مش مصدقني؟

- لأنك بتضللني.

- بالعكس، أنا بقولك الحقيقة، إنت اللي مش راضي تصدق.

«وآدي واحدة حلوة وفين»..

قالها معلّق رياضي على إحدى الهجمات،

اختفى الذي يشبهني، وتبدلّ بمباراة كرة قدم.. اللعنة على كل شيء.

دقات جديدة على باب الشقة، أتت بجديد مثلها:

- إنت ماجد علي كامل الهواري؟

- أيوه.. خير يا افندم.

بمجرد أن فتحت الباب، وجدت ضابط شرطة ومعه عدد من أفرادها، قال إنني متهم بقتل «فلان الفُلاني» جاري في البيت المقابل، ما أحلى المفاجآت!

13

بعد إجراءات قانونية، وبعض الأسئلة والإجابات، من عيّنة «لماذا قتلته« »أين أداة الجريمة...» إلخ.

أمرٌ من له الأمر أن أسجن لإحالتي إلى النيابة، زج بي داخل حبس انفرادي، ساد الظلام بعد أن أوصد الأمين الباب.

ضحكت ضحكة سخرية على ما يحدث لي، زاوية غرفتي وما يظهر لي منها وعندها، لهو أهون وأقلُّ وطأة على قلبي من هذه الزنزانة، لقد أصبحت زنزانة حقيقية، غير تلك التي قد رأيتها في رؤياي.

اتخذت زاوية وجلست، ركنت رأسي إلى الجدار خلفي، ولأول مرة دمعت عيناي رغمًا عني، شعرت أن قلبي يتمزق حزنًا على نفسي، نهاية المطاف وما كان في الحسبان أن أتواجد هنا، متهمًا بجريمة قتل، وكما أخبروننني، كل الأدلة ضدي، إذ التقتطني كاميرات المراقبة، صورتي تُظهر أني قاتله، ولا سبيل للإنكار، أنا لا أنكر، أنا لا أفهم كيف تمِّ هذا أصلاً.

- إنت ماعملتش حاجة.

جاء الصوت من ناحية جانبي الأيسر، في الظلام تستحيل الرؤية، لكنني بصرته، بالطبع أنا، أجلس أنظر إلى نفسي وأتحدث، الجنون في ظلِّ ما يحدث هو قمة العقل، قلت:

- مرة أخرى تضللني.

- هتفضل طول عمرك غبي.

- مش هتفرق كتير، اللي باقي أيام، كل شيء ضدي، والحكم بالموت مسألة وقت مش أكتر.

- موت؟ جِبت الكلام ده منين؟ فوق يا ابني من الغيبوبة اللي إنت فيها دي.

- غيبوبة؟ بص حواليك يا...

أنا مش عارف أسميك إيه، شيطان ولا إبليس ولا أنا، أيًا كان...

انعقد لساني عن الكلام، كادت عيناي تسقطان من محجريهما، وبصرتُ ما حولي، أنا هنا، أجلس جلستي عند زاوية الغرفة، وكل شيء كما هو؛ غرفتي، لا زنزانة، لا شرطة ولا نيابة، ولا حتى ما يشبهني.. كلُّ ما في الأمر أنني هنا.. هنا دائمًا وحدي منكمشٌ في زاوية الغرفة.

«فيفي امرأة لَدِنَة، جمالها صاخب،

حبَةٌ مانجو عويس ممتلئة، بَضةٌ، يهطل منها العسل.»

14

في صباح يوم خميس، ليس كمثله صباح، مشرق وجميل، ويدعو للبهجة والتفاؤل.. ذهبت إلى العمل.

وشوش مقفرة غاضبة، ترى في الأعين أثر قلة النوم، وقد انكفأ معظم الموظفين على حواسيبهم وأوراقهم، إنها لعنة العمل، من تطأ قدماه هذه «المخروبة» لا بُدّ وأن ينسى الصباح الجميل.

جلست إلى مكتبي، فتحت حاسوبي، وبدأت في مباشرة عملي. تنقلت بين «شيتات الإكسل» كما يتنقل القرد بين فروع الأشجار، أرقام وأرقام وأرقام، على أي حالٍ لا جديد، هذا ما اِعتدتهُ.

بعد وقتٍ ما اتصلت من الهاتف الداخلي بمديري، طالبًا منه إذنًا بالانصراف، ووافق لأني كنت قد أرسلت له ما أنجزت عبر «الميل».

نزلت إلى الشارع، ومشيت حتى وصلت أوله عند الشارع الرئيسي لأركب، وقبل أن أركب، وقفت عند الكشك المحبب لي، وهو تقريبًا الوحيد من نوعه، إذ يبيع صاحبه الجرائد

اليومية والكتب، تصفحت بعض العناوين، أمسكت بجريدة ما، قلبت صفحاتها بسرعة، ولفت انتباهي إعلان، مختصر ما جاء فيه، أن الطبيب النفسي «راغب عوني» قد نقلَ عيادته، ضحكت بسخرية وأنا أقول إن كل شيء يؤول إلى صاحبه حقاً، فمن الطبيعي أن المعتوه يدفع من أجل هذا، ومن غير الذين غابت عقولهم يدفع ثمن اللا شيء، هم ولا غيرهم..

***

ولجت المفتاح إلى باب شقتي، إذ سمعت قرقعة كعبها على درج السلم نازلة - ومن غيرها - أميِّزها من بين مليار امراة، قرقعة تُشعرني

بأنوثة طاغية، أحاول مقاومتها، وأرغبها، مثلما ترغب الضواري اللحم الطازج، والأرانب الجزر، و...

بانت كما تسطع الشمس، تتمايس في عباءة سوداء ضيقة، ضيقة جداً، جداً، الأربعينية تتهادى في تؤدة، غطت نصف شعرها الخلفي «طرحة» سمراء شفافة، اقتربت منِّي، أصبحتْ أمامي مباشرة، شعرت أنني في الجحيم، أو حمى دكت حصون جسدي.. حددِّتْ عينيها بقلم أسود كفراعنة مصر القديمة.. لا بُدّ أن أفيق، قلت:

- خير يا ولاء؟

نظرت لي نظرة أعرف ما يتوارى خلفها، قالت بصوت أنعم من النعومة:

- ولا حاجة، كنت في السوق وطالعة، سمعت رجلك على السلم، قلت أرجع أسلم.

حركات شفتيها في الكلام، كتيار كهربائي سرىَ في أعصابي، ثم إنها وقفت على قدمٍ ونصف، مالت بصدرها نحوي ميَلة بسيطة، أمسكت بعباءتها من المنتصف ورفعتها، فكشفت عن قدمٍ اصطبغت بحمرة الدم، ابتلعت ريقي، قلت:

- اطلعي شقتك يا ولاء.

ضحكت ضحكتها الخليعة التي تخلع الشجر من جذوره.

استدارت، ويا ليتها ما استدارت، وقبل أن أفقد نفسي أكثر، دخلت شقتي بسرعة، فتحت «الثلاجة» وشربتُ من الماء البارد ما يطفئ نار ولاء، ثم جلست على أريكة الصالة، أحاول استعادة نفسي.

15

في زاوية الغرفة المظلمة جلست.. لاحت في الأفق أصوات عالية، أنوار متداخلة داعبت عيني، أحمر قانٍ، أزرق صافٍ، أصفر فاقع.. رائحة دخان السجائر تفوح من كل اتجاه.. على يميني نساء يرقُصن فوق مسرح صغير، وخلا يساري من كل شيء، إذ إن رجالاً تجمعوا أمامي مباشرة، غير ناظرين ناحيتي، ولّوا لي ظهورهم جالسين، مركزين أنظارهم نحو فتحة في الجدار يغطيها ستار باهت لونه.

لمحتُ أصابعها تزيح الستار، أصابع طويلة حلوة، تلونت أظافرها بالأحمر الناصع، والأحمر لون إغراء وفتنة.

ولما خرجت صاحبة الأصابع من خلف الستار، كل الرجال انتفضت أجسادهم، فهبوا واقفين، إجلالاً وتعظيمًا لها، كادت أعينهم مفارقة وجوههم من فرط إعجابهم بها، أفواههم مفتوحة من روعة جمالها، وملابسها التي تحرك الصخر الجامد.

إذ لَبست فستانًا أحمرَ طويلاً ضيقًا، يظهر ويشف عن مفاتنها، نظرات عينيها تذبح الأفئدة، وساق ظاهرة إلى الفخذ، كشفت عنهما

فتحة في فستانها، طيّر منظرها عقول الناس.

تمايلت وتغنجت، ثم تمايست ماشية إلى طاولة مميزة ثم جلست إليها، طالما قصدتها فهي بالتأكيد طاولة مميزة، والغريب أنها لم تنظر لأحد ممن حولها إلا أنا. كل الرجال جروا عليها، ركعوا تحت قدميها، وهي لا زالت تنظر إليّ، بادلتها نظرات عجائبية وداخلي إحساسان: أشتهيها وأرفضها.

وما مرت إلا لحظة، حتى اقترب منها النسوة، كما الرجال ركعن تحت قدميها، الكل يتوسل لها، لكنها لا تهتم بهم، ما زالت تُثبت عينيها عليّ،

تبدلت ملامحها إلى ملامح ولاء، لم تكن كذلك منذ أقل من لحظة، نظراتها ثابتة، بدأت تتكلم، دون أن تحرك شفتيها.

مضى الوقت، لا طويلاً ولا قصيرًا، لم أستطع التحديد، لا أشعر بأيّ شيءٍ، فقدت الإحساس بالموجودات من حولي، إلا هي، ثم إنها ظلت ثابتة، ثابتة جداً.. صوتها عذب، ناعم، حنون، أعذب من نبع ماء صافٍ، أكثر نعومة من ريشة تمرر على الجلد، وأحن من دعاء الأمهات، إحساسي غريب، أحاول الثبات خارجياً، وفي داخلي منجذبًا نحوها، ثم تحركت، أخرجت من مكان ما في فستانها مفاتيح، مفاتيح سيارات عدة، وزعتها على بعض الراكعين، أخرجت نقودًا كثيرة، وحقائب مفتوحة تظهر الأموال داخلها، ولا أعرف أنى لها إخراج كل هذا من فستانها، أهو فستان أم خزينة تتبع البنك المركزي، وزعتها هي الأخرى على البعض، لمرة ثالثة أخرجت من فستانها فساتين عارية ضيقة، بلا أكمام وقصيرة، ووزعتها على النساء، فصرخن انبهارًا، أخذن الفساتين ولبَسنهنُ على مرأى من الجميع، والكل لا زال راكعًا، وهي ثابتة.

انطفأت الأنوار، ساد الظلام، ونام كل من أخذوا الأموال على ظهورهم داخل حفر في الأرض، وحقائب النقود خارج الحفر، هكذا رأيت عن يميني، رغم الظلام فأنا أرى، أرى مرآب تجمعت فيه سيارات غطتها الأتربة، وبجانب كل سيارة شخص ميت على الأرض، كان هذا عن يساري، أما أمامي فرأيت حفرًا أخرى، بداخلها نساء ميتات، غطى الدود أجسادهن.. ثم ظهرت هي داخل نور أبيض ساطع يظهرها كالقمر في سماء سوداء، لا زالت فاتنة وثابتة، أشارت إليّ، زادت نبضات قلبي، أصبح صوت خفقاته، كقنبلة موقوتة على وشك الانفجار، استمرت تحرك أصابعها تطلبني،حركت رأسي أنني أرفض طلبها، سمعت صوتها واضحًا، لأول مرة أفسر ما تقول، سمعتها بأذنيّ

لا داخلي، قالت: - مستنياك، لأنك زي ما جيت هنا مرة، هتقدر تيجي مرتين، ويمكن تلاتة وأربعة وعشرة.

16

أقوم بإصلاح هذا «الطبق» أكثر مما أكلت وشربت طيلة حياتي، مرة أُعدلّ وضعيته في استقبال الإشارة، ومرة أغيّر الأسلاك، وهذه المرة؛ العدسة التي تستقبل الإرسال من القمر الصناعي اختفت.

أتذكر المثل الإسباني الذي يقول: «إنّ الفرصة (الحظَّ) امرأة صلعاء في مقدمِّة رأسها خصلة شعر، فإذا جاءت نحوك وأمسكتَ بها من هذه الخصلة حققَّت فرصتكَ.

دونّها الكاتب الإسباني «ميغيل دِ ثربانتس» في كتابه «دون كيخوته دي لا مانتشا».

- محتاج حاجة يا ماجد؟ أعمل لك شاي؟ شكلك مطول.

قالتها ولاء، والتي تأتي نحوي كما يأتي النمل على السكر، والذباب على القاذورات، وهنا الحظ يأتي في هيئة شيطان رجيم، من الواضح أن حظي امرأة صلعاء بالكامل، التفت وقلت:

- لا يا ست ولاء، مش عايز حاجة، أنا خلاص خلصت وكنت نازل أهو.

لم ترد، استدارت، يا ليتها ما استدارت، إن الأشياء تهتز عندها كمثل اهتزاز حلوى «الجيلي المثلج»، إلى متى أستطيع الصمود؟ فهل أستطيع ألا أفعل؟

انتظرت بضع دقائق، دخنت خلالهم سيجارة، كي أطمئن أنها دخلت شقتها ونسيت أمري، إن ولاء امرأة في مقتبل الأربعينيات من عمرها، تزوجت منذ عشر سنين من رجل تعدىّ الستين من عمره، مات منذ سنتين، وترك لها ثروة لا بأس بها، الناس يرون فيها مطمعًا، إذ إنها

متفجرة الأنوثة، أو كما يطلقون عليها «فرسة» والكل خيّال يحلم بالفروسية، ولكن هيهات، فولاء صياد بارع، لا فريسة سهلة.

إن المرأة - في رأيي الشخصي - هي من تحددِّ من يملك أمرها.. وأنا هنا لا أملك أمري، أنى لي ملك أمرها، تراودني - منذ أن مات زوجها - عن نفسي، ولا أعرف لماذا أنا تحديداً؟ تكبرني بتسع سنوات، تقبض معاش أرملة خمسة أضعاف راتبي الشهري، تستطيع أن تتزوج من هو أغنى وأوسم مني، وما يدفعني للحيرة أكثر، أنها تريدني بلا زواج.

نزلت الدرج، إذ فتحت - ولاء - باب شقتها، وقد فصلتني عنها درجتان، أشحتُ نظري عنها كي أكمل النزول، فصدتّني عن سبيلي، وقفَتْ تمنعني أن أجتاز الدرج نازلاً إلى شقتي، وتثبت موضع قدميّ مذهولاً، إذ لبستْ قميصاً أحمرَ ضيقًا، به فتحة في اليسار، تكشف من قدمها إلى آخر ساقها، لفاءُ الفخذ، رخصة جسدا وبشرة، كشف الفستان عن نصف صدرها، إذ هو صدر كعبَ ثدياه رطب، وجيد أتلع يبرق كالفضِةِ، ووجنتان امتصتا من الورد حمرته، وشفتان كالفروالة المكسوة بالرضاب، وعينان عسليتان بهما حور، بنظراتيهما تُحصدَ الرقاب، وشعر فاحم.

غضضت بصري، ولم أستطع كبح جماح الهوى، أتى قطٌّ - من القططةِ المنتشرين في العمارة - وتمسحّ في قدميها، فهذا حال القط، فما بال حالي، قالت:

- أعملك الشاي؟

بلعتُ ريقي بصعوبة، جف حلقي كالذي أرهقه قيظ الصيف، قلت:

- لا، أنا، أنا هنزل، عديني، عديني وبطلي حركاتك دي.

اللعنة على كل شيء، لم تُتَح لي أي فرصة، لقد مدتّ يدها وأطبقت على ياقة قميصي بكامل كفِّها، ومنه سحبتني خلفها إلى داخل شقتها،

شعرت أن قصابًا يجر ذبيحته، ربما البهيمة ستقاوم، بينما أنا لا أستطيع.. أغلقت الباب، واستمرت في جذبي حتى دخلنا غرفة من الغرف، غابت الإضاءة عنها، إلا من نورٍ طفيف، جعل الغرفة كأنها في ظلامٍ حلوٍ، كغرفِ تحميض الصور الفوتوغرافية قديمًا، ولم يخلُ المكان من الصوت.

«سوريانوس يقول: ما هي إلا محضُ أوهامٍ نعتقدها، فالبداية والنهاية، إنما تكونان فقط في الخط المستقيم ولا خطوط مستقيمة إلا في أوهامنا، أو في الوريقات التي نسطر فيها ما نتوهمّه، أما في الحياة وفي الكون كله، فكلُّ شيء دائريٌّ يعود إلى ما منه بدأ، ويتداخل مع ما به اتصل.»

17

حلقَّت الغربان في السماء، رأيتها من نافذة زجاجية صغيرة عن يميني، جالسٌ داخل غرفة صغيرة، عند طرف سرير يناسب حجمها، نامت عليه الفتاة/ المرأة التي لم تعد فتاة ولم تعد امرأة كذلك، عبوس، وجههُا شاحب، نالَ منها المرض ما نالَ، لم يتغير لبسها، عباءة الكهنة الصوفية ذات اللون البُني، ومثلها لبست أنا، سألتها:

- إنتي مين؟

لم تُجب - كالعادة - رغم تغيرٌ شكلها، إلا أنني أعرفها، خطب ما يتعلق بذكريات معها يحدثني، يذكرني، أنا أعرفها جيداً، لكن متى

وأين قابلتها، هل تحدثنا، لا بُدّ وأننا تبادلنا الحديث سنينَ، لا مرة أو اثنتين، وقبل كل هذه الأسئلة.. أين أنا، ما هذه الغرفة التي تشبه القبور؟

يتراقص قلبي خوفًا من سماع أصواتهم، نعيق الغربان ما هو إلا المادة الخام للخوف، إن المرء مناً إذا سمعه توجس، وأحسٍّ ضيقًا وريبة وقلقًا، فما بال المرء يجلس في مكان لا يعرفه، ولا يعرف كيف حضرَ إليه، أمامه إنسية تحولّت

من فتاة إلى امرأة إلى عجوز تلفظ أنفاسها الأخيرة، هذا كله ممتزجٌ بنعيق الغربان.

ارتجف جسدي، إذ لمستْ أطرافَ أصابعها يدي، تحسست بهم أطراف أصابعي، كأنها تطلب الاطمئنان، بل ووجدته، هكذا رأيتها تشعر، بان على ملامحها الارتياح، ارتسمت على شفتيها ابتسامة بسيطة، ثم ناءت عني وهوت، وأسلمت الروح إلى بارئها، مال رأسها معُلنًا الرحيل، هبّ هواءٌ باردٌ، أطفأ نارَ الشموع، وغابت الغربان عني صوتًا ورؤية، ابتلعَتْهم العتمة كما ابتلعت ما في داخل الغرفة.

***

أسمع حفيفَ أوراق الشجر، إن الخريف قد آن أوانه، وبسط سماته على الأرض ونباتها، وكذلك على قلبي، كآبة ما بعدها كآبة، فإذا تبعه الشتاء، جمَد قلبي من الحزن دون سببٍ، لكنّ بصيص أمل يلوح في الأفق، لم أحظَ بمقابلة «ولاء» خطيبتي منذ شهرين تقريبًا، اللعنة على العمل وعلى كل شيء، يجعل الإنسان ينعزل عن كل ما يحب، لقد مكثت أيامًا هناك، أعمل، آكل، أنام، لا أرى غير وجوه عفنة مجعدِّة، أو وجوه اختفت تحت حطام مساحيق التجميل، وفي الليل يختم اليوم وجه معاذ الجميل، ما أجمله فعلاً، يذكرّني ببندق كلب ميكي، ليس تنمرًا، هو كذلك فعلاً.

كلما أتى الليل، انفردتُ بنفسي، أجلس على مقعد وثير مريح، ممسكاً برواية أو كتاب كي أقرأ، وإن شرعت في القراءة واندمجت، هدم معاذ متعتي، إذ ينظر إليّ في اشمئزاز ويقول:

- يا عم قراية إيه دلوقتي؟ إنت ماتعبتش من الشغل، ما إحنا طول اليوم بنقرأ الشيتات والأرقام، عينك ماوجعتكش؟

أعرف أنه يحبني، لا بُدّ وأنه يحبني، صداقتنا تحتِّم عليه محبتي، لكنها لا تحتِّم عليه حب القراءة أو تقبلُّها.. لا أرد، أكتفي بالابتسام واستكمال القراءة، فيقول:

- ماشي يا عم المثقف.

قال هذا أيضاً منذ ساعة تقريبًا قبل أن ينام؛ لذلك أحببت أن أذكره، أو أكتبه، أو أفرغ جمله عن كاهلي، في الحقيقة مع كثرة ترددٌ ما قاله خلال أعوام، قد تراكم قوله حزنًا في عقلي وقلبي، والليلة أشعَرتني بالضيق، فلم أجد أمامي سوى أن أفرغ ضيقي بالكتابة عنه.. فأنا لا أدعّي ثقافةً، أو عِلمًا، أنا فقط أحب القراءة، ونسيان الواقع - مؤقتًا -

داخل أروقة الكتب، لكي أعود إلى الواقع مرة أخرى وأستطيع تقبلّه.. وهذا - لن أكذب - لا يحدث.. إن حلاوة الخيال لا تؤثّر كثيرًا في مرارة الواقع، أو تفقدنا معناه والتعامل معه، كما القهوة وهي الواقع، كلما أضفت لها السكر، أي الخيال، ستفقد طعمها، مع الوقت، ستفقد أنت طعم طبيعتها، وكذلك الحياة، عليك أن تواجه الواقع ولا تستبدله.. حكمة لا أحب العمل بها، أنا أضيف السكر وليكن ما يكن.. فالحكمة ليست بالضرورة تناسب كل الناس، ربما قالها حكيمٌ وهو غير مقتنع بها، كي يظلَّ في نظر الناس حكيمًا ذا شأن عظيم لا أكثر من ذلك.

ما هي إلا ساعات قلائل وتبدأ إجازتي، آه إنهما يومان فقط، لكن عندما تحصل على يومين راحة بعد شهرين متواصلين من العمل فهذا فوز عظيم.. شرعت أقرأ، وأقرأ حتى غلبني النوم، لم أشعر بشيء غير تلك الرؤية العجيبة. إني سجين داخل زنزانة تشبه غرفتي، أجلس خائفًا عند زاوية من زواياها الأربع، أنظر عبر فتحات صغيرة في منتصف بابها، فأرى نفسي وحيداً في فراغ لا حدودَ له، تائهاً لا أعرف أين أنا أو منَ أنا؟، في شتات تام، تدور الأرض بي كأنني أقف فوق قُرصٍ خشبيّ، أو لعبة من ألعاب «الملاهي» تلك التي تلتف فيها أحصنة خشبية مثبتة فوق قرص دوار.. فلاحت في الفراغ مجموعة من صور الذكريات، مشاهد من مقاطع صغيرة تطوف في الفراغ أمامي.

***

طلع الصبح فأسرَ قلبي، جاء بالبشرى، إنها الإجازة، بعيداً عن هؤلاء الموتى الأحياء الموظفين، وما هي إلا سويعات وألتقي ولاء أخيرًا.. وصلت سريعًا عند أول الطريق كي أركب، ودعّت معاذ إلى حين لقاء آخر، ووقفت لبرهة أتصفح بعض عناوين الصحف عند الكشك عند ناصية الشارع الجانبي.

أمسكت جريدتي المحببّ لي تصفحُّها، قلبَّت صحفها، ووقفت عيناي على خبر، فتوقف بي الزمن، ووقفت كل ملامح الحياة، سالت الدموع من عيني، ارتجفَ قلبي، جمدتُ موضعي، إذ قرأت: «مصرع فتاة إثر ماس كهربائي داخل شقتها».. وصورة ولاء جثة هامدة مرفقة مع الخبر.

أخرجت هاتفي من جيبي، اتصلت بسرعة بوالدتها، قلت:

- ألو.. ولاء ماتت؟

قالت باكية:

- إمبارح بالليل، كلمتك لقيت تليفونك مقفول.

أغلقت المكالمة، ركضت إلى الطريق السريع وأوقفت سيارة أجرة، أبلغت السائق عن وجهتي، وطلبت منه أن ينطلق بأقصى سرعة يقدر عليها، قضيت الوقت أثناء الطريق غير مستوعب، يتراقص المشهد الذي رأيته أمامي أثناء نومي، تدور الدنيا بي كما دارت، ووجه ولاء لا يفارق مخيلتي، مرة تبتسم، مرة تبكي، مرة عبوس عجوز تنام على سرير قديم بملابس غريبة.. تلاشت الصور، إذ وصلت إلى بيت ولاء، هرولت صاعداً الدرج إلى شقتها في الطابق الثالث، وجدت قرب شقتها الناس مجتمعين من أقاربها والجيران وغيرهم، الحزن يحتل الوجوه - نساءً ورجالاً - الصمت يخيم على الجميع، يخترقه صوت القرآن الكريم آتٍ من داخل الشقة، تمهلت واجتزت ما تبقى من الدرج، ثم دخلت إلى الشقة، قابلتني أمها، تبكي كما لم تبكِ من قبل، قالت:

- ولاء ماتت يا ماجد.

عقُدَ لساني، وخارت قواي، لم تعد ساقاي تقدران حمل وزني، فسقطت على الأرض فاقداً للوعي.

18

وما الحقيقة سوى الحقيقة، لها مرارة الحنظل، وأثرَّ الحق، والموت حق، رغم تعددٌ أسبابه، فهو حق، نعرف أنه لا ينفصل عنا، فإذا حان دوره، حضر بلا سابق موعد، وإذا حضر نستغربه، هكذا جرت عادة البشر، رغم اعترافهم بالحقيقة ينكرونها ولا يتقبلوها بسهولة، وهأنذا أقف عند قبر أمي أستعد لدفنها، لم أستطع دفن ولاء، لكنني هنا، وأتمنى أن أفقد الوعي مرة أخرى، لكن لا تحدث الأمور كما نريدها، قال أحدهم:

- ابنها ينزل معايا.

كان صوت الحفار، أو «التُربي» كما نعرف مسماه، للحظة واحدة عندما نظرت لوجه، تراءى لي وجه مألوف أعرفه، يشبه عم سيد «عامل البوفيه» في مكان عملي، بسرعة تلاشت صورته، وظهر أمامي وجه آخر، رجل لا يشبه عم سيد إطلاقًا، قال:

- فين ابنها يا جماعة.

رفَعتُ يدي مشيرًا له أنه أنا من يقصده، ناداني أن أقترب منه، وأنزل درجتين إلى القبر، ففعلت، وحملت معه أمي، أنزلناها إلى مثواها الأخير، بكيت كما تبكي الأرامل أزواجهن، والأمهات آباءهن.. إن كان الزمن توقف بي عند موت ولاء ثم عاد يتحرك من جديد، فهو هذه المرة لن يتحرك أبداً، بتر فراق أمي يديّ وقدميّ الزمن، بل ونحر عنقه، فلا الدنيا دنيا، ولا أنا أنا، هكذا كان شعوري عندما وقفنا ندعو لها بالرحمة، بعد ما أغلق الحفار على جثمانها القبر، انتهى أمرها وأمري، وعادت المشاهد تتراقص أمامي مرة أخرى في عرض بانورامي، ثم لم أرَ شيئًا، ساد الظلام، هبّ هواء بارد جعلني أشعر

برجفة، برزت نتوءات على مسام جلدي، انتصب شعر يدي ورأسي، أسمع دقات قلبي تدق مع دقات عقرب ساعة كبيرة، صوت مزعج، أغمضت عينيّ، رأسي يؤلمني، ضغطت عليه بكفيّ، أريد عصر جمُجمتي كي يكفّ الصداع عن فعله ويرحل عني، جاء الصوت المعتاد، قائلاً:

- لسه بتعاند يا ماجد؟

فتحت عينيّ، إنها غرفتي، كل شيء أبصره هو مألوف لديّ، الخزانة، السرير، كتبي، الزواية، وما زلت أجلس عندها.. لاحظت جريدة إلى جواري مفتوحة على صورة رجل، كانت ملامحه مزيجًا بين رجال أعرفهم، عم سيد، الرجل العجوز الغامض، الرجل الذي دفنني، وكتُبَ فوق صورته:

«خصم خاص بمناسبة افتتاح عيادته الجديدة، الطبيب النفسي راغب عوني في انتظار زيارتكم، يومياً عدا الجمعة.. من السابعة مساءً إلى والواحدة بعد منتصف الليل».

أسئلة جديدة تُطرحَ، من هذا الرجل ممتزج الملامح، ومن أين جاءت هذه الجريدة، و...

- لسه بتعاند يا ماجد.

سمعته مرة أخرى، مألوف على مسامعي، صوت الرجل الذي دفنني، الرجل الذي قابلت عند المقابر، عم سيد، قلتُ:

- أنا مش فاهم، إنت إنسان ولا شيطان، ولا جنسك إيه؟

قال:

- أنا لا شيطان ولا إنسان ولا ليا جنس تفهمه.

أظلمت الغرفة، اختفى صوته، ساد الصمت لدقائق، ثم «طق» سمعت هذا، صوت يشبه ذاك الصوت الناتج عن إضاءة كشاف عملاق، وظهر ضوء أبيض مثل الضوء الذي يلازم ممثلو المسرح، مسلطاً على رَجل يجلس فوق كرسي ويضع قدمًا فوق أخرى، وقد حجبت عني رؤية ملامحه رغم الضوء، قال:

- مش آن الأوان بقى!

- مش فاهم، إنت عايز إيه منِّي؟

- آن الأوان إنك ترتاح وتريحني.

- هو أنا أعرفك عشان أريحك؟ وبعدين هو أنا وجودي تاعبك في إيه أصلاً؟

- ما قلت لك، أنا هو إنت، طول ما إنت بتهرب من الحقيقة، طول ما هتفضل تعبان، وهتتعبني معاك.

- وإيه هي الحقيقة؟

"طق» عاد صوت الكشاف مرة أخرى، هذه المرة انطفأ، اختفى الضوء الأبيض، وابتلع الظلام الرجل.. هذا كله كان بين الوهم والحقيقة، هذا ما أوصلتني له نفسي، ولكن.. لماذا تختلط الوجوه والأحداث؟ كل شيء يبدأ من نقطة ثم يعود إليها مرة أخرى، أشعر أنها دائرة، أدور داخلها ولا أعرف أين هي تحديداً هذه النقطة التي يبدأ منها كل شيء.. تبقى الإجابة معلقَّة إلى حينٍ آخر.

«أنا من بصق الآخرون نحو وجهي ألف مرة حتى بدأ ذلك الشعور القذر الطيب ينمو ويتراكم في صدري الضيق»

أحمد العايدي

19

تدور الحياة بي كما تدور الأرض حول الشمس، أنا هنا دائمًا، أعود إلى نقطة حيث ابتدأت، دون أن أحدد هذه النقطة، جالساً في زاوية غرفتي، مكان عزلتي عن العالم الخارجي، وفي هذه اللحظة أدركت أنني أعاني مرضاً نفسياً، بل أمراضاً، لم تصل حد الجنون، لكنني أسلك دربه، وربما اقتربت.. وقد تذكرت، معرض الصور المتلاحقة في عقلي كون لي صورة واضحة عن بعض أشياء نسيتها، أو اصطنعت نسيانها، هربت من الواقع هربًا كما تهرب شاة شاردة من قطيع ذئاب متربص بها، لكن الواقع يرفض الاستسلام ويلاحقني، بينما ربما تغفل الذئاب عن ملاحقة الشاة.

يا ليتني ما اكتشفت، ليتني استطعت الهرب أكثر فأكثر، وليتني عرفت حقيقة ما يحدث لي كاملة.. إنها لعنة التفكير، المعرفة وعدمها، يريد المرء منأً استكشاف كل شيء، ثم يقول مثل ما أقول: «يا ليتني».. أتذكر الآن وأنا في كامل وعيي ما جعلني أهرب وأنعزل.

ماتت ولاء فجأة، فكان وقع هذا صادمًا على عقلي وقلبي، ماتت وتركتني للحياة تعبث بي، ليست لأنها ماتت، فالموت حق، لكنها الصدمة، أن يختارها القدر من وسط الملايين من النساء، ثم من أسرتها.. من بعض الآحاد من أسرة فيها خمس نساء، انتقاها الموت، فقط لأنها قامت في الليل والكهرباء قد انقطعت لتشرب، ذاب ثلج «الفريزر» وتحولّ إلى ماء، وعندما فتحته كي تأخذ زجاجة ماء، عاد التيار الكهربائي، كان شديداً، فلم تتحمله الثلاجة القديمة ولا الأسلاك المتهالكة، تعدت الكهرباء حدود مسارها وانتقلت إلى هيكل الثلاجة المعدني، ومنه إلى الثلج الذائب، فعندما أرجعت ولاء زجاجة الماء

داخله - الفريزر - لمس الماء يدها، فانتقلت وسرت الكهرباء إلى كامل جسدها.. سقطت على الأرض ميتة.. هكذا قالوا...

ألا يحزن القلب ما حدث؟ ألا تدمع العين دمًا؟ إنها الأسباب المتعددة للموت، والحكمة التي لا نفهمها أبداً، نتقبلها، لكننا نتأثر، ومناً من لا يعود إلى سابق نفسه، الموتى يأخذون معهم جزءاً من الحياة إلى قبورهم، فلا تعد الحياة حياة، تتحول إلى قبر مؤقت، يستطيع المرء داخله التنفس دون حياة.

لم تكن لي فرصة، إذ حضر الموت بغتة مرة جديدة وأنتقي أمي، ليته اختارني، ما كنت لأشعر بهذا الألم، إن قلبي ينفطر كمداً، ولا أستطيع البوح بما أحسهٌ داخلي، ابتعدت عنها؛ لذلك أنا أبغض العمل، قضيت أياماً بعيداً، نسيت أنني على قيد الحياة، من أغلى من أمي، رغم أنها كانت لا تهتم كثيرًا لأمري، إلا أنني أحببتها، وسأظل أحبها، لربما نظرت لي مرات عدة كأني عديم الفائدة، عالة عليها، إذ تعطيني مصروفًا فلا أعمل، فهل أعجبها أني علمت بموتها بعد ثلاثة أيام؟

لماذا لم تحسن معاملتي كابن؟ لماذا لم تحبني كما أحببتها؟ هأنذا أعمل، وأعمل، وأعمل، ثم ماتت وحيدة، وقد أخذني العمل عنها، فوجدتها

جثة هامدة، وصل جثمانها إلى مرحلة التحلل، لماذا يا أمي فعلتي هذا بنفسك وبي؟ ولماذا لم تربيني منذ صغري أن أكبر رجلاً يُعتمد عليه؟

رغم ذلك أحببتك، حيز لك من الدنيا كثير، أموالاً، ريع هذه البناية وغيرها ثلاث أخريات، وفي النهاية، تركتِ الدنيا بلا شيء منها، وورثت أنا العقارات والنقود، بماذا تنفعنا النقود إذا رجعنا إلى التراب؟ سأنفق منها ما سوف أنفق، ثم ألقاكِ في عالم آخر، دون شيء يُذكرَ من متاع الدنيا..

آه يا أمي وألف آه، ربيتيني عديم الفائدة، فنبذتينني دون ذنب، فمتِّ دون أن أعلم، تركتنِني وحيداً، أعاني من الأمراض النفسية؟ فصام، رُهاب،

توهم، خوف من كل الدنيا، اخترع مشاهد جميلة تجمعني بكِ، وما هي إلا محض خيال، فهل كان يستحق ابنك النبذ؟

أجيبيني، إجابة واحدة كافية بالنسبة لي، إنها كلمة، مجرد كلمة، لكن أنى لكِ النطق بها، وقد استعصت عليكِ حيةً فكيف تقولينها وأنتِ ميتة؟ سنتقابل مرة أخرى يا أمي في حياة جديدة لا موت فيها، ولا نفوس تسيطر علينا، لا مال، ولا عقارات، لا كذب، ولا خوف، ولا أمراض نفسية..

إنني أشعر بالضياع، كالسائمة الشاردة في بيداء لا عين ترى حدود اتساعها، ولا سبيل تهتدي إليه، هل في الموت راحة يا أمي؟ حتى هذا السؤال لن تستطيعي إجابتي عليه، وما لي إلا الحيرة أكثر فأكثر.. إذا كان سيصلكِ سلامي، فالسلام عليكِ يا أمي إلى أن يريد الله موعداً للقاء، واللقاء قريب، قريب أكثر مما نتخيل، رائحته تحوم من حولي، وطعمه على طرف لساني.. أنا قادم إليك يا أمي في أقرب وقت ممكن.

***

طفلاً أبكي أمامه، حصان خشبي رأيته من خلف فاترينة للعب الأطفال، مالكته تترقب رد الفعل من داخل المحل، حسبت أن عليَّ البكاء أكثر، مستعطفًا أمي أن تبتاع الحصان لي، لكنها لم تكن مثل أولئك الأمهات، لم تفكر لحظة، أمسكت يدي ودخلت خلفها إلى المحل، سألت باسمة:

- بكام الحصان ده لو سمحتي؟

ردتّ عليها:

- سبعين جنيه.

أخرجت أمي المبلغ من حقيبتها ودفعته، دون فصالٍ أو مناهدة، المحل «شيك» ولا سبيل للمهاترات في تقليل السعر، وأمي لا تجيد هذا الفن الفريد، لم أكن أعرف - وقتها - هل ما دفعته أمي من نقود كثير أم قليل، واليوم أعرف، سبعون جنيهاً عام 1998 ربما ما يقارب السبعة آلاف جنيهاً من تاريخنا هذا (2023) ويتضاعف بمرور الزمن.. ثم لم نقف عند هذا الأمر، تتبدل المشاهد، الذكريات غربان تحلّق فوق رأسي، وكلما تذكرت مشهداً، سقط غرابًا إلى الأرض ميتًا، إني أصطاد الذكريات، عسى ألا أصاب بالجنون إن نسيتها، فمن لا يملك منهن واحدة على الأقل - أي الذكريات - يسجل في مجتمعه مجذوبًا.

أراني فتى، اقتربت من أمي أطلب منها خمسة عشر جنيهاً، لم تسأل عن السبب، فقط قالت لي:

- الفلوس عندك في الشنطة، خد اللي تحبه يا حبيبي.

الحياة سهلة بسيطة، فذهبت وفتحت حقيبتها، فقال لي هاتف مسكنه أذنيّ وعقلي وقلبي: «ليه ما تاخدش 30؟ ماما مش هتحس بحاجة، ولو حتى خدت بالها، مش هتعاتبك»..

صحيح، كلام صحيح، منذ متى وأمي ترفض لي طلبًا؟ حدثّت نفسي كي أريح ضميري، ثم أخذت ورقة فئة الخمسون جنيهاً، سأقضي السهرة مع الأصدقاء بالنصف، والنصف الآخر ربما أشتري «شيشة» ولوازمها، لطالما أحببت هذا، ولن تمانع أمي رغبتي أن أمتلك واحدة.

أراني أرقص، أترنح سكران مع إحداهن، عاهرة تميل فأميلُ، مراهقًا كنت، فتحت قميصي إلى بطني، تدلى من عنقي عقداً، وصبغت شعري في مقدمِّته بصفرة حقيرة، أغرتني الفتاة أكثر، ولا أعرف حقيقة ما جذبني.. أهي الفتاة أم الدنيا؟ هذا تفكيري اليوم، أما الأمس فلم أكن أملك عقلاً من الأساس، لكنني اخترت طريقي صوابًا عن اقتناع تام، أخذتها إلى بيتي، فلم تكن أمي موجودة بالبيت ليلتها، وحدث ما أتاحت

لي الفرصة أن يحدث، ونمت، غيبني السكّر، وأتعبتني الفتاة، أفقت على صوت أمي، فتحت عينيّ، فإذا بها واقفة أمامي، الفتاة نائمة عارية إلى جانبي، خفق قلبي خوفًا، ثم هدأ سريعًا، إذ غادرت أمي دون عتابٍ يُذكرَ، بل دون كلمة، وكزتُ الفتاة كي تنهض، وطلبت منها أن تلبس

ملابسها وترحل لأن أمي قد حضرت على حين غرة، فلبت الفتاة طلبي، وقبل أن تذهب، قبلّتني قُبلة حالمة رقيقة على خدي الأيسر.

خرجت، أخذت حماماً، حسبت أن أمي انتظرت فقط حتى تنفرد بي دون وجود للفتاة، ثم توبخني بوابل من أفظع الشتائم.. فأخطأت الحسبة، لم تفتح الموضوع نهائياً، ولا حتى مرة عابرة إلى يوم موتها.

أراني منذ عامين، إنها المرة الوحيدة التي وبختني فيها أمي، ولم تعد بعدها أمي التي أعرفها، تحولت مئة وثمانين درجة، أفضت بكل شيء كان داخلها طيلة ما حييت معها، ذكرتني بكل أفعالي المشينة القذرة الوقحة، ولم تذكر واقعة الفتاة أبداً، ولا أعرف لماذا، بما تفيد المعرفة في مثل هذه المواقف، ولم أسألها، فربما كان لهذا أثر في ألمي..

في هذه الجلسة التأديبية، ما جرأت فتح فمي حتى، وقد اتخذت أمي قرارها، منعت عني المال، وتركت المنزل وغادرت حتى أحصل على عمل، اضطررت أن أبحث عن مصدر للمال، ووجدته عن طريق إعلان في جريدة، محاسبًا في شركة ما، بعدها أعلمت أمي، فعادت إلى البيت، مرة أخرى، لم أجرؤ على محادثتها في شيء، عوّدتني ألا أتكلم، أن أسكت فحسب، منذ تلك المرة التي أسكتتني عند محل الألعاب، مرورًا بكل شيء، وتحولّ الأمر إلى السكوت التام، وأن أنصاع إلى ما أرادته هي...

لم تكن تلبي رغباتي لأنها تحبني، كي أسكت فقط، ولا أطلب منها الطلب مرتين، ثم ماتت في هدوء، وأنا لست معها، لربما كانت تريد هذا أيضاً، ألا ترى دموعي وهي تحتضر، لكن هل كنت سأبكي؟ لا

أنكر أني بكيت بعدها، لكن صدقني، لا أعرف سببًا لبكائي، خمنت مرة أني بكيت؛ لأن لم يعد هناك من أنصاع إلى أمره، من

برأيك المسؤول عن ما جرفتني الدنيا إليه؟

لا ترد الآن.. سأسمعكَ في وقت لاحق، فأنا لم أنتهِ من الحديث بعد.

20

إن لكل شيء لحظة ينتهي فيها، فكل ما هو مخلوق سيفنى - الأحياء والجماد - إلا من خلق الكون، حقيقة لا ينكرها سوى المغيبين، وأنا لم أنكرها يومًا، ولن أنكرها ما حييت، لكني نسيتها، غابت عن عقلي كثيرًا؛ لذلك لم أحسب حسابًا لفراق ولاء بغتة، وحقيقة الأمر تقول إن من تعودِّ شيئًا صعب عليه تركه، وأنا تعودت الشراب، والخمر مسكر لعين، يختلط بالدم والعقل، والإقلاع عنه يشبه أن تستأصل كُلْيَتَك مستيقظاً واعيًا، وعدتُ ولاء مرارًا أن أترك الخمر دون رجعة، فلم أستطع، فاكتشفت أنني أكذب، غضبت وامتنعت عني، استسمحتها حتى سامحتني، وتركت الخمر من أجلها، وما مرت إلا ستة أشهر، إلا وعدت إليه مرة أخرى، فعلمت، امتنعت عني، استسمحتها حتى سامحتني، وتركتُ الخمر، وما مرِّ غير شهرين حتى عدت إليه مجددًا.. ثم كررتها، ثم.. ثم إن تلك المرة التي لم أرَ فيها ولاء طيلة شهرين، لم يكن بسبب العمل فحسب، كانت لم تعد لي بشكل كامل، إذ كانت غضبة مني وقررت الانفصال، وبعد الكثير من محاولات التوسل، أعطتني فرصة أخيرة، انتظرت الإجازة حتى نتقابل، ولتعد المياه إلى مجاريها، فجفت المياه، وطمست المجاري، وماتت ولاء، عاقبني القدر على كل أفعالي.

أتعلمَ.. ربما لم أكن أبكي على فراق أمي، وكنت أبكي لفراق ولاء، إذ لم تسنح لي الفرصة أن أبكي وقت موتها، ولن أخفيك سرًا، إن ما أظهرته ولاء لي من حنية واحتواء، جعلني أرى فيها أمي الحقيقية، الأم التي تعاقبك إن أخطأت، وتثني عليك إن أصبت، تشجعك إن أخفقت، وتمدحكَ إن حققت انتصارًا أو سبقًا، حتى وإن كان بسيطاً، عاملتني كإنسان حقيقي، لا دُمية تتحكم بها بخيط كدمى المسرح، تحركها كما تشاء وقتما تشاء.. أرى في عينيك سؤالاً أخمنه بسهولة.. هل كنت

سأتغير؟ الإجابة لا، لهذا عاقبني القدر واختارها، إن ولاء فتاة بريئة صالحة، لم تكن للدنيا، أو لم يكن لها فترة طويلة في الدنيا، الصالحون يرحلون سريعًا، الصالحون رحلتهم قصيرة.. هكذا تعلمت من قراءاتي الكثيرة، لم أكن أستحق وجودها، فرحلت، وعقُبتُ برحيلها.

***

تجمعنا، خمسة أصدقاء، بينهم أنا وهو، فخاللته واصطفيته منهم، إن معاذ نقيضي دائمًا، لذلك أحببت صحبته، غريب إلى درجة العجب، فهو لا يشرب الخمر، وليس له رغبة في رفقة العاهرات، بل ولا يدخن سيجارة حتى، ظلّ يجتمع معنا، ولم يضعف ولو مرة أمام تلك المغريات، السبب الذي جعلني أرى فيه ما هو مختلف عن بقية الصحبة، كلما قدمت له سيجارة رفضها، كلما عرضت عليه مشاركة حسناء الفراش امتنع، ذات مرة كان يبيت معي في شقتي، واتصلت بفتاة أعرفها أن تحضر وتجلب أخرى معها، ولم يكن معاذ يعلم، إذ التي أعرفها نسخة من تفاجأ بهما داخلتين إلى شقتي، فقد تركت لهذه مفتاح الباب، حينئذ هبّ واقفًا غاضبًا، ومشى من غير سلام، لو أنه رأى عفريتًا ما كان فزعَ لهذه الدرجة.. وبقي السؤال يراودني: لماذا يوافق معاذ مرافقتي وهو يرفض كل أفعالي؟

تعرف بالتأكيد، لم ألقَ إجابة، لأنني لا أجرؤ طرح السؤال عليه، أنا أكتفي بطرحه في عقلي فقط، هكذا عودتني أمي، ألا أتكلم أبداً، وأن أحتفظ بجميع ما أحبه وأبغضه داخل نفسي.. أتذكرّ قولها: «إن النفس قلعة كبيرة، ذات شأن عظيم، فإذا ما كانت أسوارها عالية منيعة،

كانت عرضة للغزو والسقوط، والناس غزاة قتلة، إذا تسلل أحد منهم أسوار قلعتك، احتلها دون رادع يردعه».

كما أخبرتكَ؛ الحِكَمُ لا تتماشى مع الكل، كتمت كل شيء داخل قلعتي، وسورتها سورًا عاليًا منيعًا فحجبت به النور عنِّي، وأنا ها هنا أعيش

في ظلمات نفسي، حبيس زاوية غرفتي، سجني الذي أجد فيه الألفة والسكّينة.

قررّ معاذ أن ما أعيشه عائد إلى مرض نفسي، واجهني بالحقيقة، أني عديم المسؤولية، عديم الفائدة، مسرف، أحيا بين الملذات والترف، تقمص دائمًا ذلك الدور، لوام لائم موبخ، لم يكفّ مرة واحدة عن معاتبتي كلما تقابلنا، لم أجرؤ أن أبوح له بالحقيقة.. علمّتني أمي أن أسكت دائمًا، أو بمعنى أدق؛ أن أخرس، لم تقلها مباشرة، لكنها علمتني فعلتها مرات ومرات، فكان لهذا أثر عميق راسخ في نفسي.

وما مضى من الوقت كان كافيًا أن أكتفي بمعاذ فقط، وأن أبتعد عن باقي الأصدقاء الثلاثة، هذا النمط من البشر قليل، اعتبرت أن الدنيا أتاحت لي فرصةً وحظاً في مرافقته، وقد استغرب أني قارئ نهم، رغم كوني عبداً لملذات ومتع الحياة الدنيا، فحبي للقراءة نبع من البحث لإيجاد إجابات لأسئلة لا حصر لها تراودني، لا قدرة لديّ للإعلان عنها، فهربت إلى المعرفة كي أحصل على مرادي، قرأت كل ما طالته يداي، وبصرته عيناي، قرأت الرواية بكل أنواعها، قرأت الكتب في شتى المجالات، أحببت مطالعة الأخبار من إصدارات الجرائد اليومية، ما جعل حجم الاختلاف يزداد بيني وبين معاذ، وحسبتُ أن توسعي في القراءة سيقربنا، فاكتشفت أنه لا يميل لها، ومن ثم ظلّ يلومني ويعاتبني، أني أضيع الوقت فيها، قال مرة يؤنبني:

- هو إنت طول الليل هتفضل تقرأ، يا عم نام أحسن، ولاّ شوف لك شغلانة بدل ما إنت لسه بتاخد مصروف من أمك.

سكتتُ طبعًا، بالأحرى عجزت عن الرد، فسألته:

- عندك شغل ليا؟

فامتنع عن إجابة، لماذا؟ لا أعلم، ومن متى علمت أو حصلت على إجابة؟ أنا أجيد السمع والسكوت ولا غيرهما أجيد.. والجدير بالذكّر في هذه المسألة أني لم أتذكر يومًا ماطلت مع بغي في أجرتها، إذ تقول أجري كذا، فأعطيها كذا، وإذا وجدتني متساهلاً، ترجع في الاتفاق، ومن ثم ترفع القيمة أكثر، فأوافق على الفور، علمتني أمي هجر الفصال ومهاترات البيع والشراء، وأي معاملة نقدية، من طلب شيئًا فليحصل عليه.

ذات مرة تحدثّ معاذ معي بحدة بالغة، بكلام جامد مثل سهام غرزها في قلبي، لكني تعودت ألا أتكلم، وأن أنصاع إلى ما أؤمر به، قال:

- اللي إنت فيه ده ماينفعش، لازم تروح لدكتور نفسي.

- تعرف دكتور كويس؟

أجاب نعم، أعطاني عنوانًا، ولم أنتظر كثيرًا، إذ ذهبت ليلاً إلى ما وجهني إليه معاذ.

***

حي الزمالك يشعرني بالحياة، إذ فيه شوارع هادئة تبعث الراحة في النفس، ومناظرها تسر الأعين، ومبانيها فيها من عبق التاريخ، ووصلت إلى وجهتي، العنوان الذي دلني إليه معاذ، بعد ساعة من التجول في شوارع الحي الراقي، وقفت أمام عمارة من طراز قديم مكونة من أربعة أدوار، علقت لافتة على باب العمارة تقول: (عيادة د. راغب عوني.. اختصاصي الأمراض النفسية.. إلخ.. الدور الأول.. شقة 1).

صعدت الدرج، ثم دلفت إلى العيادة، التقطت مسامعي موسيقى هادئة كتلك التي تشغل داخل «المولات».. بصرت عيناي صالة فخمة بها أثاث وثير، أريكة وعدد من الكراسي البيضاء، تتوسطهم طاولة خشبية

مستطيلة الشكل، وضع عليها مؤلفات عدة، وقد تجاهلت البنت التي تجلس في واجهة الباب إذ دخلت، فعدت إليها قائلاً:

- فيه حجز الساعة 12 باسم ماجد.

تفحصت «الكمبيوتر» ثم رفعت وجهها، قالت مبتسمة:

- أيوه يا افندم، الساعة 12، لكن لسه بدري، لسه فاضل 3 ساعات.

- آه عارف، أنا هستنى هنا.

بدت عليها أمارات الدهشة والعجب، لم يكن في وسعها غير أن توافق، مثلي تمامًا، رغم أن فضولها كبركان ثائر، إلا أنها تخمده رغمًا عنها، أعلم كل العلم، أنها تريد سؤالي عن سبب مجيئي قبل موعدي بثلاث ساعات كاملة، لكنه الانصياع دون حق البوح، الكبت والكتمان.

- ممكن أدخن سيجارة؟

- آه طبعًا، بس هستأذن حضرتك، التدخين في البلكونة.

حركت رأسي أنني أتفهم الأمر، ولا بأس من التدخين في الشرفة، دلتني إليها، دخلت غرفة صغيرة نظيفة فارغة، رأيت الشرفة فشكرتها، بادلتني وعادت خارجة، فتحت الباب الخشبي القديم «الشيش» ووقفت داخل شرفة صغيرة تطل على شارع إضاءته خافتة.

أشعلت سيجارة، لوكتها بين شفتيّ ساحبًا من دخانها ما استطعت، ثم أخرجته ببطء، وقع نظري على شيء ما يتحرك في الظلام، حركتُه لفتت انتباهي لأنها حركة غير متزنة، رجل ثمل أثرَّ الخمر على عقله وجسده، تابعته عن كثب، فإذا به يظهر أمامي، إنه أنا، كان لا زال يتحرك حتى ابتعد، وأكله الظلام.

ماذا يعني هذا؟ الإجابة: لا أعرف.

كأن شيئًا ما كان، أكملت سيجارتي حتى احترق التبغ وصدري، أطفأتها وعدت إلى الكرسي الوثير، تفحصت الكتب أعلى الطاولة، عناوينها بين مؤلفات دويستويفسكي، نيتشه، فيكتور هوجو، وكل أولئك الذين يتبعون نهجهم، هذا الطبيب يعالج مرضاه أم يقتلهم بؤساً وكآبةً؟

اخترت البؤساء، شرعت أقرأ، انعزلت عن كل ما يدور من حولي، نبهّني صوت أعرفه، البوابة فتحت، رفعتُ نظري، إذ رأيتني أقف أمام «فانتين» - شخصية في الرواية - وهي لم تعد فانتين، رأيتها ولاء، جثت على ركبتيها، لامتني تقول:

- أنت السبب، تخليت عن أنوثتي مقابل فرنكات معدودة بسببك، خسرت شعري وأسناني، كف عن شرب الخمر أرجوك.. أرجوك.

قلت:

- لم يكن من أجلي، فعلتي هذه من أجل كوزيت، ابنتك.

تحركت الصورة، واختفت فانتين التي لها وجه ولاء، تحركت حركة خفيفة، إذ سمعتها تنادي، البنت السكرتيرة:

- يا أستاذ ماجد.. يا افندم، يا أستاذ ماجد.

- ها.. نعم، أيوه معاكي.

أجبتها مغيبًا، بدا على ملامحها الملل، قالت:

- دور حضرتك يا افندم.

رأيت الساعة تشير إلى الثانية عشرة، الساعة كانت معلقَّة على الجدار الذي هو أمامي، تعرقّتُ، توترتُ، زادت نبضات قلبي، تركت الكتاب فوق الطاولة وغادرت، بمعنى أدق: هربتُ.. لماذا؟ لا أعلم بالطبع.. لا تسألني أي سؤال مطلقًا، لا أملك إجابة قَطّ.

نزلت الدرج سريعًا أركض، هرولت في الشارع، وجدت نفسي في المكان ذي الإضاءة الخافتة، أترنح كأنني ثمل، وعدت إلى البيت، نمت منكمشاً في زاوية غرفتي، شعرت براحة غريبة، كأنما استطعت الهرب من ملاحقة وحش أسطوري، ولطالما أحببت أن أجلس في ذلك المكان أقرأ، فأنعزل عن الدنيا برمتِّها، كانت الزاوية الملجأ الأول الذي يحتوي خوفي، وضعفي، وحيرتي، وكل ما يؤرقني، إليها لجأت، فاحتوتني كالعادة، ونمت نومًا عميقًا مريحًا.

21

ما هو الجنون؟ أن يحيد العقل عن مسار التدبر؟ أم أن يلبي المرء مطالب نفسه؟ أم أن يُسلب منه حقه في الحياة رويداً رويداً فيفقد عقله؟

حتى التعريف يصعب التعبير عنه، ربما هذا جنون من نوع آخر، التعقل يؤدي إلى الجنون، التفكر يؤدي إلى الجنون، المعرفة، الاختلاط بالناس، الانخراط نحو ملذات الحياة الدنيا.. إذًا أنى للإنسان ألا يُجن، ما هو سبيل المرء منأً في النجاة، هل من إجابة واحدة تطفئ النار في صدري؟

انهارت قواي، لم أستطع الوقوف، سقطت جالساً على الأرض، الظلام حالك، الهواء بارد، قرقعة حذاء نسائي يدل أن امرأة تخطو هنا وهناك.. «تك.. تك.. تك».. أصوات عقرب الساعة تؤلم رأسي، الصداع يأكل دماغي، ثم قفزت فزعاً، إذ لمست كتفي أصابع ناعمة، التفت متخذاً خطوتين إلى الخلف، إذ رأيت المرأة/ الفتاة التي لم تعد فتاة، ابتسمت، فتذكرتها، قلت:

- ولاء؟!

ظلت تبتسم دون ردٍّ، قامت من مجلسها، أمسكت بيدي، مشت وتبعتها حتى وجدت نفسي أمام مرآة عملاقة، قالت:

- ماذا ترى؟

قلت:

- إنسان مجنون، أو على حافة الجنون، فقَد كل حاجة حبهّا، وفقَد كل حاجة ماحبهاش، حتى نفسه فقدها.

- صف لي نفسك، كيف ترى وجهك.

- قبيح لدرجة عمري ما قدرت أتقبلّها.

- ترى متى يفقد الإنسان نفسه؟

- ما أعرفش.. ماتسألنيش.

لم تبدِ أي ردة فعل، فقط تركتني، دخلت إلى المرأة واختفت، فوجدتُ نفسي أقف أمام مرآة الحمّام أطالع انعكاس صورتي فيها، هل مسنّي شيطان؟ هذه الفتاة/ المرأة التي لم تعد فتاة ما هي إلا شيطانة من الجن.

الجنون لا يحدث بالإنسان كل ما أمرّ به، ما أعيشه خارق للطبيعة، لا بُدّ أنه بفعل الكتب اللعينة التي أملكها.. دق جرس باب الشقة،

فخطوت نحوه وفتحته، دون أي مقدمات دفعتني ولاء ودخلت، تلبس قميصاً شفافًا لونه أسود، أغلقت الباب بسرعة، واستدارت، فاهتز في جسدها كل شيء، قلت:

- بقولك إيه يا ولاء مش ناقصاكي، كفاية أوي لحد كده.

حاوطت عنقي بساعديها، رائحتها مثل الورد، وأنفاسها أصابت جسدي بحمى أنوثتها، طبعت قُبلة على رقبتي، ثم أرست شفتيها على ميناء خدي، أمسكت رأسي من الخلف بكفيها، ودفعتني حتى سقطت على الأريكة وهي فوقي، قلت:

- ليه أنا، ليه؟ أنا لا وسيم ولا...

قاطعتني فقالت:

- هو إنت ماعندكوش مرايات يا ولا ولا إيه؟

نهضت وأنهضتني معها، سحبتني من قميصي إلى غرفة النوم، الإضاءة حمراء خافتة، ضحكتها الخليعة ترد الروح، لمستها ناعمة كلمسة الحرير على الجسد.. ولسنا بمفردنا، كان معنا، ولم أقصد الشيطان فحسب، فأنا أرى شبيهاً لي معها، أما أنا فأجلس عند زاوية

الغرفة، الغرفة التي تبدلّت إلى غرفتي، والرؤية اختلفت، انتقلت الحسية ممن يرافقها إلى الجالس عند الزاوية، ألا وهو أنا، فلم أعد أشعر بحرارة لمستها، بل تحولّت مشاهدَ، هل هذا يعقل؟ أنا.. أنا أتخيل؟ «مرة أخرى أجد نفسي وجهاً لوجه أمام ذاك السؤال الذي لا إجابة له: هل القضية في الفعل ذاته أم في استمراره؟

أحلام اليقظة - المؤقتة - حيلة مقبولة، بينما استمرارها جنون.. كيف " أصل إلى حل هذه المعضلة التي لا مخرج منها: الفعل هو الجنون؟ أم "ديمومته؟

محمد الجيزاوي

22

كل واحد مناً بداخله اثنان، يفرض أحدهما سطوته ونفوذه على الآخر حسب مكتسبات النفس عبر الزمن، مواقفه مع الدنيا والناس، تربيته، تعليمه، ثقافته.. وُلدتُ يتيم الأب، لأم لا أعرف من أهلي غيرها، نشأت في كنفها، فجعلتني أحيا كما تحب وتريد وترضى، علمّتني أن أطيعها دون ردٍّ لأمرها، أو حتى سؤالها منَ أنا، فأنا هو الذي شكلّته هي، لم تبخل معي بأي شيء إلا العاطفة، لم أشعر يومًا أنها تحبني كحب أم لابنها، لكني أحببتها كم يحب الولد الصغير أمه، فبقيت وحيداً دومًا، وحيداً إلى الدرجة التي جعلتني وسط الناس وأحس بهذه الوحدة، الناس الذين قابلتهم كانوا مؤقتين، لكلٍّ منهم مرحلة لا أكثر، لا بالزمن، وإنما بإرادة أمي، إن قالت لا تصاحب فلانًا، قطعت علاقتي به، وإن قالت لا، فهي لا، وهي لم تقل لا، ليتها قالت لا، ليتها منعتني عن الناس، إنها كانت تصر أن أعرف فلانًا وفلانًا، رغم أنها تعلم أنهم أصدقاء سوء، لا أفهم هذا أبداً.

قاطع حديثي إليه وسأل:

- لاحظت حاجة على سلوكها؟

مرت الذكريات مرة أخرى أمامي تعرض، لم يجمعني بها إلا مواقف قليلة، كنت دائمًا خارج المنزل - أثناء الدراسة والعطلة الصيفية - ولا أعلم أهي بالبيت أم خارجه، أنا أعود ليلاً، أو أوائل ساعات الصباح من

اليوم، فأجدها، فإما أنام، أو أطلب منها نقودًا. عشنا معًا على هذا المنوال إلى أن تبدلّ كل شيء، عندما تغيرت كلياً.

قال:

- حاسس إنك مشتت أكتر من الأول؟

تنهدت ولم أجبه، لكنني اعترفت بما أحسّ في نفسي، اختارت لي نهج حياتي، رسمت لي طريقًا لا أحيد عنه أبداً، أطعتها طاعة كاملة.

شعرت بضيق، عاد الصداع إلى رأسي، وما يذهب عني هذا إلى سيجارة وكوب من القهوة، فوجدت علبة السجائر فارغة، وبرطمان القهوة مثلها، قلت له:

- عايز أكون لوحدي شوية، هستأذنك دلوقتي، وأرجع لي بعد ساعة.

حرك رأسه بالموافقة، دخلت إلى الحمّام غسلت وجهي، فنظرت إلى المرأة، ظهرت خلفي، الفتاة المرأة التي لم تعد فتاة.. في هيئة ولاء، قالت:

- كيف لهذا الفتى الوسيم أن يتحول إلى هذا الدميم، هل تتذكر كيف كانت الفتيات يتلهفون إلى كلمة منك؟ عيناك الخضراوان دَبُلتَا، حددهما الأسود من جميع النواحي، هجر شعرك الناعم رأسك، إذ اصلعِّ بإرادتك، قوامك الرياضي تحولِّ إلى هيكل عظمي.

قربت من وجهي صورة لي، تعود إلى سنوات قليلة بأمس ليس ببعيد، تأملتها وتأملت ما أصبحت عليه، ثم أبعدتُ يدها عني، لقد رفضت

أن أتذكر ذلك الذي كنت عليه، أنا من تعكسه المرآة الآن، أما الفتاة/ المرأة فهي وهم لا أكثر، وإن افترضنا أنها الحقيقة، فلماذا لم تظهر إلى اليوم؟ ما الحقيقة وما السراب؟

***

مشيت كثيرًا إلى خارج حدود منطقتي؛ إذ نقصت علب السجائر، بل وشحّ وجودها، أعرف رجلاً يبيعها بضعف ثمنها.. لا بأس، اشتريت واحدة، وربع كيلو جرامًا من القهوة.

ها هو لا زال هنا، وجدته، سألته:

- إنت مش كنت مشيت، رجعت ودخلت إزاي؟

ابتسم ابتسامته العجيبة، قال:

- أنا هنا طول ما إنت هنا.

- مش فاهم؟

- يعني لما إنت مشيت أنا مشيت معاك، ولما رجعت، أنا رجعت معاك.

لا سبيل لحق أو باطل أستطيع أخذه منه، قلت:

- تشرب قهوة؟

هزّ رأسه أي نعم، غريب هذا الرجل، سألته:

- هو إزاي دكتور نفسي بيروح للمريض بيته، مش غريبة شوية؟

ضحك وقال:

- أنا وإنت حاجة واحدة، اعتبرنا أصدقاء، أقولك حاجة أحلى، أنا نَفسْك، أنا هو إنت.

23

يتحول الإنسان إلى ما لم يعهد به ذاته، إذا طرأ على حياته ما أثار هواه، أو ما أعجزه عن المواصلة، أو أي نقطة فاصلة جعلته يترك ما عاشه خلف ظهره، ويحيا حياة جديدة مختلفة، وهكذا كان وضعينا - أنا وأمي - لم تعد هي، سلوكها تغير، هنا لاحظته، في تلك اللحظة تغيرت كلياً، وتغيرت أنا أيضاً، تغيرت؛ لأنها ببساطة أرادت لي التغيير، فتغيرت، أمرتني أن أجد عملاً، أن لا أكون عالة عليها، أن أكون رجلاً كما الرجال، والذين يعملون ويأكلون من عرَقهم، ونسيت أني مسخ صنعته بيديها، كانت أمي تهتم بنفسها كثيرًا، إن رأيتها تعتقد أنها أربعينية، جسدها أبيض رطب، يهتز كل ما فيها إذ مشت، ومشيتها لم يخل منها التمايس أبداً، ربما راودتني، ربما أرادتني، في الأخير أنا امتنعت، هل يعقل هذا؟

لا أخفيك سرًا، أنا انتقمت منها، بالطريقة التي ربتني عليها، أن أعيش مشاعري في نفسي فقط، أما الواقع، فأنا طائع مطيع، تحت أمرها وقتما وكيفما شاءت.. رضخت إلى رغبتها، لا بُدّ للرجل أن يثبت رجولته، وما الرجولة إلا أن أكون مسؤولاً، ذا عمل، أكسب منه المال بعرق جبيني، شرعت أبحث عن عمل، تطلب هذا بعض الوقت، عندئذ علمت سبب تغيرها، وعندئذ تغيرت معها.

عدت إلى المنزل ذات ليلة، بعدما أرهقني البحث عن عملٍ، جبت معظم أحياء القاهرة باحثًا، كلما دخلت مكان، رفضوا تخصصي، إذ إنني تخرجت من كلية تربية رياضية، ولا مدرسة تريد مدُرساً للألعاب.. وعندما فتحت الباب، شلُ جسدي موضع قدميّ، إذ سمعت ضحكتها، ضحكة خليعة ناعمة، خرجت من غرفتها تلبس قميصاً أحمر طويلاً، به فتحة تكشف عن فخذها، رأتني، فلم يهتز لها رمش، قالت:

- ادخل أوضتك وماتخرجش.

أومأت، دخلت غرفتي، وقبل أن أغلق الباب، خرج من غرفتها، معاذ جارنا، التقت أعيننا، ابتسم لي ابتسامة احتقار، ثم بصق على الأرض، قفلت الباب بسرعة، لجأت إلى زاوية الغرفة، بكيت حتى تهدجت أنفاسي، بكيت كما لم أبكِ طوال حياتي، بكيت قهرًا وذلاً، بكيت لأنني لا أستطيع فعل شيء سوى البكاء، دون صوت، إن سمعتني لربما قتلتني، تسلل إلى مسامعي صوتها، تتأوهّ، تتغنج، تتأوهّ في نعومة، تتغنج في دلال، تتأوهّ في متعة، نهضت فزعاً، جلبت وسادتين، نمت في زاوية الغرفة ووضعتهما على أذنيّ حتى لا أسمع صوتها، وبكيت، بكيت حتى غلبني النوم.

***

قابلته على السلم صاعداً، لم أستطع النظر إليه، نكست رأسي، تخيلته يتحقرني، هو كذلك فعلاً بعد تلك المرة، لم ينطق بكلمة، وكذلك فعلت، مررت من أمامه وهربت، أين المهرب؟

سألت نفسي، قطعت الشوارع بلا هدى، أخذني التجوال إلى حي الزمالك، إذ وقفت عند أحد الأكشاك التي تبيع الكتب، طالعت أشكالها، عناوينها، أسماء كاتبيها، سألت البائع:

- ممكن أتصفح كتاب عادي؟

قال:

- أيوه.. اتفضل أكيد.

جذبني أحد الكتب، بالأحرى عنوانه واسم كاتبه.. العنوان مناسب لي جداً، يعبر عن ما جرفتني إليه الدنيا، كتُبَ على الغلاف «مذلون مهانون» هذا ما عبر عني تمامًا، لم أكن أعرف منَ يكون «دوستويفسكي» وكانت أفضل معرفة، إن الرجل كتبَ سطورَ روايته كأنما أقص عليه حالتي فدونها، متعب، ممزق، تائه، بين الأسطر وجدت ملاذًا غريبًا، لم أتردد لحظة، ابتعت الرواية على الفور، عدت إلى المنزل، فتحت الباب، دخلت بسرعة إلى غرفتي، لا أريد أن أرى ما رأيت مجددًا، لكنها محض أحلام، نادت عليَّ، خرجتُ على استحياء، لبست هذه المرة قميصاً لونه أسود، يشف ما تحته، إذ بانت مفاتنها وجسدها، لم تستح منِّي، ما الذي أصاب هذه المرأة، ألعنت؟ أجُنت؟ قالت:

- زي المرة اللي فاتت، ما تخرجش من أوضتك.

أشرت برأسي بالموافقة، دخلت غرفتي وأغلقت بابها، تناولت الكتاب، شرعت في قراءته، كلما سمعت تأوهاتها، قرأت بصوتٍ عالٍ، وركزت أكثر في القراءة، استمررت أقرأ وأقرأ.. فانعزلت عن العالم بأسره.

هنا كانت نقطة البداية، بداية انعزالي عن كل شيء، وصنع العالم الخاص بي، أقطع الشوارع طوال اليوم للبحث عن عمل، أعود في الليل، بعد أن أبتاع رواية جديدة، وفي بعض الأحيان روايتين أو عشر، أجده عندها، أنعزل في زاوية غرفتي، ثم أقرأ، أقرأ فحسب، مؤخرًا ابتعت روايات عن الجن والعالم الآخر، لربما أسافر عبر الطلاسم إلى عالمهم، لربما أجد في عالمهم ما لم أجده في عالم البشر..

في هذه الأثناء كنت قد اكتسبت عادة جديدة، وهي قراءة الجرائد، فعندما كنت أبتاع الكتب، أحيانًا يذهب البائع إلى المخزن ليجلب لي ما أردت، وأنتظره عند الكشك، أشرب قهوة وسيجارة، أطالع الأخبار في الجرائد اليومية، وقد ابتعت واحداً، فوجدت إعلانًا، يطلبون فيه موظفًا لذلك تقدمت للوظيفة، ومن ثمّ تم في قسم الحسابات، وأنا كنت أجيدها. قبولي.

قضيت معظم الوقت في العمل، وبعد شهرين، وجدت معاذ يعمل معي، صدُمت، لم يكن هذا في الحسبان، لقد هربت منه ومنها، فجاء ورائي، إنه القدر، ومنَ مناً هرب مرة من قدره؟

عندما تفاجأت به، نكست رأسي، فتحدث إلى كزميل، لم أفهمه، هو جاري، تبادلنا الحديث كثيرًا بدافع الجيرة، كان ينتقد أفعالي دائمًا، يكره فسادي الأخلاقي، إسرافي، رعونتي، إهمالي، ثم كل هذا كان قشرة يختبئ تحتها شيطان.

مع مرور الوقت تعاملنا وكأن شيئًا لم يكن، تعلمت الانصياع لها، وربما تعلمَّ هو الآخر، أن ينصاع لها، إنها أفعى خبيثة في صورة امرأة، يقين في نفسي يخبرني أنها أغوته، يعود إلى ما فعلته معي من إغراءات، فالتي هيأت لها نفسها مراودة ابنها عن نفسه، سيستعصي عليها مراودة الغرباء؟

أحببت أن أنتقم منها، رأيتها تلبس لي كما تلبس لمعاذ، وإني مكانه، تخيلتها في منامي كل ليلة، أبرحتها ضربًا، أشبعتها إهانة، أوجعتها، أذللتها، كل ليلة، كل ليلة ولا تشبع، لا أنكر أني رغبتها، رغبتها انتقامًا لا حباً في الرغبة، أحببتها، أحببتها كأم وعشيقة، قتلتني، أهلكتني، أوصلتني إلى حافة الهاوية، هل كنت أستحق كل هذا؟ أجبني، لماذا فعلت بي ما فعلت، هل تملك عاطفة الأمومة أم أنها شيطان لعين؟ هل تستطيع إجابتي؟.

24

أجلس أمامه في حيرة، أنى لعم سيد أن يتقمص الأشخاص، هل هو شيطان؟ قال:

- الحل في إيدك يا ماجد.

- قلتها كتير، وولا مرة فهمتك.

قام من مجلسه، اقترب منِّي وقال:

- تعترف بالحقيقة.

- اعترفت، أنا قلت لك كل حاجة فعلاً.

- إنت اعترفت بكل حاجة فعلاً، ما عدا حاجة واحدة بس.

- إيه هي؟

- إن كل ده ما حصلش يا ماجد، باستثناء حكاية والدتك ومعاذ.. والدتك ربتك زي ما هي عايزة، طمست شخصيتك، جعلتك تابع ليها، عبد ليها، عشان تقدر تمارس حياتها زي ما تحب هي، وفي الوقت اللي لقيتك كبرت فيه، وهي ماكنتش عاملة حسابها على اللحظة دي، قررت إذلالك، ونجحت في كده، ومعاذ جارك، بدافع معرفتك بيه غير العميقة، كان بس بيحاول يظهر بمظهر جامد تحتيه هش، بمجرد ما

الست الوالدة أغرته، خر وريقه جري عليها، وبقى زيك، مطيع ليها، وتابع لأمرها.. وأمك مماتتش ولا حاجة، لما الناس والجيران اكتشفوا أمرها، هربت، وسابت لك العمارة دي تاخد إيجار شققها، والشقة دي تعيش فيها، وأهو تريح ضميرها ناحيتك، وبناء عليه أنت انعزلت هربًا من كل شيء، ومن نظرات الناس ليك.. أما معاذ فسافر السعودية، بعد الفضيحة أبوه سفره لعمه في السعودية، وفضلت إنت هنا، لوحدك، منعزل، مغيب، تايه، مريض نفسي بالتوهم، والفصام، والرهاب، والاكتئاب.. كوكتيل محترم بصراحة.. أما ولاء دي فهي الست الوالدة، فإنت اخترعت في خيالك جانب صالح ليها، وعشت معاه، اخترعتها زي ما إنت كنت تحب تشوفها، حبيبة، أم، زوجة، أخت، لكن مفيش ولاء.. ده إنت حتى ما قدرتش تلاقي للشخصية اللي اخترعتها اسم تسميها بيه غير ولاء، اللي هو اسمك والدتك أصلاً.. لا فيه جن ولا عفاريت، لا بوابات ولا عوالم أخرى، لا راجل عجوز غامض، ولا فتاة / امرأة لم تعد فتاة، إنت تخيلت والدتك في كل الستات اللي إنت بتتمناهم في حياتك، وعم سيد عشان كان بيعاملك كويس، تخيلته راجل عجوز غامض، وتخيلته دكتور نفسي، هو أصلاً اسمه راغب عوني، وإنت شقُته باسم تاني عشان تعتقد إن حياتك مختلفة، واسم راغب عوني ده يحتل شخصية تانية تساعدك مساعدة مباشرة، فسميته سيد، واستخدمت اسمه الحقيقي وحنيته عليك ومعاملته الطيبة كأنه دكتور نفسي.. كل حاجة إنت حكيت عنها وهم يا ماجد، وهم إنت اخترعته، فصدقته وعشِته كأنه حقيقة بالظبط.

سال الدمع من عينيّ، قلت:

- يعني أنا مجنون؟

- الحل في إيدك ترتاح من كل ده.

- إنت إزاي جيت هنا؟

- أنا هو إنت. وإنت لازم ترتاح من همك وتعبك ده، هتفضل لحد إمتى هربان، هتفضل لحد إمتى منعزل؟

كلامه صحيح، بل هو الصح بعينه، إلى متى سأظل هكذا، مغيبًا مجذوبًا منعزلاً.. لا بُدّ أن ينتهي كل هذا العبث، لا بُدّ من نهاية.. سألته:

- إيه الحل دلوقتي؟ قول لي وأنا هنفذ.

مشى نحو باب الشقة وفتحه، أشار لي أن أتبعه ففعلت، صعد الدرج إلى سطح العمارة، وأنا خلفه، اقترب من حافة السطح، فاقتربت، قال:

- مفيش غير الحل ده، يلا يا ماجد، بينك وبين الراحة لحظة، إنت تعبت كتير، تعبت كتير وجه الوقت اللي لازم ترتاح فيه.

رأيت الأرض بعيدة، تفتح ذراعيها لاحتضاني، تبتسم لي ابتسامة هادئة حنون، صوته لا زال هنا، الرجل العجوز الغامض عم سيد عامل البوفيه الرجل عند المقابر الطبيب النفسي، كلهم شخص واحد في الأساس.. كلهم أنا..

الانتظار لن يفيد بشيء، لا بُدّ أن أرتاح، يجب أن أنهي هذا الشقاء الذي أعيش فيه.. الأرض بعيدة تناديني أن أعود لها، أنا منها ولا بُدّ من عودة، وهل منا أحد لن يرجع إلى منشأه؟

كلنا عائدون إلى أمنا الأصلية - الأرض - منها كنا وإليها نكون.. الطريقة والسبب والكيفية ليسوا بالشيء المهم، الراحة هي السبيل، والأرض تنادي مبتسمة تريدني، وأنا لبيّت نداء أمي الأصلية.. تقدمت خطوة، علقت يميني في الهواء.. ثم...

تمت بحمد الله